مكتبة الشباب

رحلة ابن بطوطة

تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

خلاصة الرحلة

بقلم

فؤاد قنديل

صغير الدولية للنشر

جميع حقوق الطبع محفوظة لشركة سفير

رقم الإيداع ١٤٨٧٣ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولي : ISBN : 977 - 361 - 523 - 5

هذا الكتاب

هذا الكتاب الذى نقدمه للقارئ العربى الكريم من أهم الكتب التى تعتز بها المكتبة العربية ؛ لأنه فريد فى مجاله، مميز فى بابه، والكتب المماثلة له قليلة، فضلاً عن أنها لا تدانيه فى المادة العلمية والثقافية، ولا تجاريه فيما احتوى عليه من أماكن ومعالم وآثار وشخصيات، كما أن أصحابها لم يبلغوا ما بلغ صاحب هذا الكتاب.

إنه كتاب «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» للرحالة المغربى ابن بطوطة، الذى أمضى نحو ثلاثين عامًا هى أغلى سنوات عمره فى الطواف بالبلاد شرقًا وغربًا، وسجل أغلب ما رأى وسمع وعاش وأحس وعانى وخاطر؛ حيث تعرض للموت بكافة الأشكال عدة مرات.

اسمه «أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى»، قبيلته هى «لواتة» ومسقط رأسه فى مدينة طنجة على ساحل البحر الأبيض المتوسط وهى من مدن المغرب، التى تقع أقصى غرب الشمال الإفريقى، والمدينة ذاتها تقع على قمة الحدود الإفريقية شمالاً عند ملتقى البحر المتوسط بالمحيط الأطلسى.

وكتاب «تحفة النظار» كتاب بديع وجذاب يقدم تفاصيل رحلة ابن بطوطة التى بدأت عام ٧٢٥ هـ وكان عمره اثنين وعشرين عامًا،

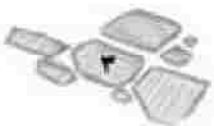

طاف من خلالها الأرض المعمورة جميعها تقريبًا إلا المنطقة القطبية الشمالية، وجنوب إفريقيا، ولم يكن العالم يعرف شيئًا - حين قام برحلته - عن الأمريكتين الشمالية والجنوبية وعاد الرجل عام ٧٥٤ هـ أى أنه غاب عن بلاده نحو ثلاثين عامًا، ولم يرتحل مثله إلا أبو حامد الغرناطى الأندلسى، فقد غاب مدة طويلة إلا أنه ظل يرتحل بين البلاد الأوربية الشمالية.

ولا نبالغ إذا قلنا: إن ابن بطوطة هو الرحالة العالمى الأول الذى لم يقطع أحد مثله كل تلك المسافات، ولا قضى كل هذه السنوات، ولا عايش كل هذه الفئات المتعددة من البشر المختلفين لغة ولونًا وجنسًا وعرقًا، وطعامًا وشرابًا، وعادات وأزياء، وعقائد وأهواء.

ولد ابن بطوطة عام ٧٠٣ هـ وتوفى عام ٧٧٦ هـ (أى بين عامى ١٣٠٤م و ١٣٧٥م)، وقد قدم برحلته - التى أملاها على ابن جزى مواطنه المغربى تنفيذًا لدعوة سلطان البلاد - خدمة كبرى للعالم أجمع من ناحية، وأضاف صرحًا ثقافيًا للعالم العربى من ناحية أخرى ويستحق لذلك الثناء والتقدير على مدى الأيام.

إننا - بوصفنا من عشاق الرحالة العظيم- لا نملك إلا أن نقدم إلى شباب أمتنا وفتياتها- الذين ينتظرهم المستقبل بشغف وهم مسلحون بالعلم والمعرفة - تلخيصًا لهذه الرحلة العامرة الفياضة بكل الثمرات

الثقافية عن العالم حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى، بما لا يتيسر معرفته فى غير هذا الكتاب.

ونثق أنه سيكون موضع إقبال القراء، كما نثق أنه سيكون باعثًا لهم على حب السفر ومداومة الاطلاع على كل ما يكشف أسرار العوالم الغامضة والمناطق المجهولة، فذاك بعض ما يتعين على الإنسان أن يسعى إليه خاصة فى هذا العصر.

وتمنياتنا دائمًا بالتوفيق

فؤاد قنديل

البداية

أظنكم تسمعون عني، فأنا «أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد ابن إبراهيم اللواتي» من «طنجة» بالمغرب، والمعروف بابن بطوطة.

ولدت في السابع عشر من رجب سنة ٧٠٣ هـ لأسرة تهتم بالعلم وعمل كثير منها بالقضاء، وسرت على الدرب ذاته، فدرست علوم الدين والفقه واللغة، وحفظت القرآن قبل أن أبلغ الخامسة عشرة، وعملت سنتين فقيهًا وخطيبًا، إلى أن اشتدت بي الرغبة في أداء فريضة الحج، حتى أصبحت شاغلي وهمي ومنتهى أملي، وعقدتُ العزم على الرحلة، ولما يسّر الله، خرجت من «طنجة» مع جمع من الرفاق يوم الخميس الثاني من شهر رجب عام سبعمائة وخمسة وعشرين هجرية (١٣٢٥ م).

حملتنا الجمال في رحلة تهفو القلوب مع كل خطوة فيها ومرحلة إلى زيارة مكة وقبر الرسول الكريم؛ لنستكمل بهما أركان إسلامنا الذي لا تستقيم لنا حياة بدونه.

وصلنا تونس فبقينا بها عدة أشهر، وكلفني أهلها بالخطبة والقضاء بينهم، وقد أرضاني هذا وهدأ خاطري، فقد كانت الحمى قد أصابتني بعد أن غادرنا مدينة بونة «عنّابة» بالجزائر، حتى إني كنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف، ولا

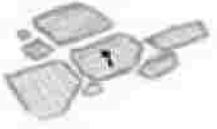

يمكنني النزول خوفًا من قطاع الطرق والصحراء المجهولة الشاسعة والمجدبة.

وعندما وصلنا إلى تونس أقبل أهلها يسلمون على كل من معي، ولم يسلم أحد عليّ، فحزنت واشتد بكائي، وسرعان ما تقدم مني بعض أهلها لتحيتي ومؤانستي فذهبت وحشتي، ولم البث أن وجدت الراحة بينهم لقرط مودتهم.

ثم رحلنا عنها في آخر ذي القعدة إلى ليبيا فمررنا بكل مدنها وقراها الساحلية حتى بلغنا الإسكندرية - حرسها الله - وهي مدينة تجمع كل المحاسن والمدهش من العمران، وهي- على اتساع مساحتها- أنيقة وجميلة تقطعها الشوارع النظيفة المزينة بالورود. زرت كافة معالمها وخاصة المنارة وعمود السوارى، وهو عمود هائل من الرخام يقع وسط غابة من النخيل، وزرت الميناء الشرقي والغربي ،وكلاهما عامر بالسفن والبضائع.

وحرصت كعادتي على لقاء العلماء والأولياء والمتصوفة والفقهاء، وعلى رأسهم الإمام الورع الزاهد «برهان الدين الأعرج»، وقد دعاني للإقامة عنده ثلاثة أيام، وقال لي يومًا:

- أراك تحب السياحة والجولان في البلاد.

قلت له: نعم.

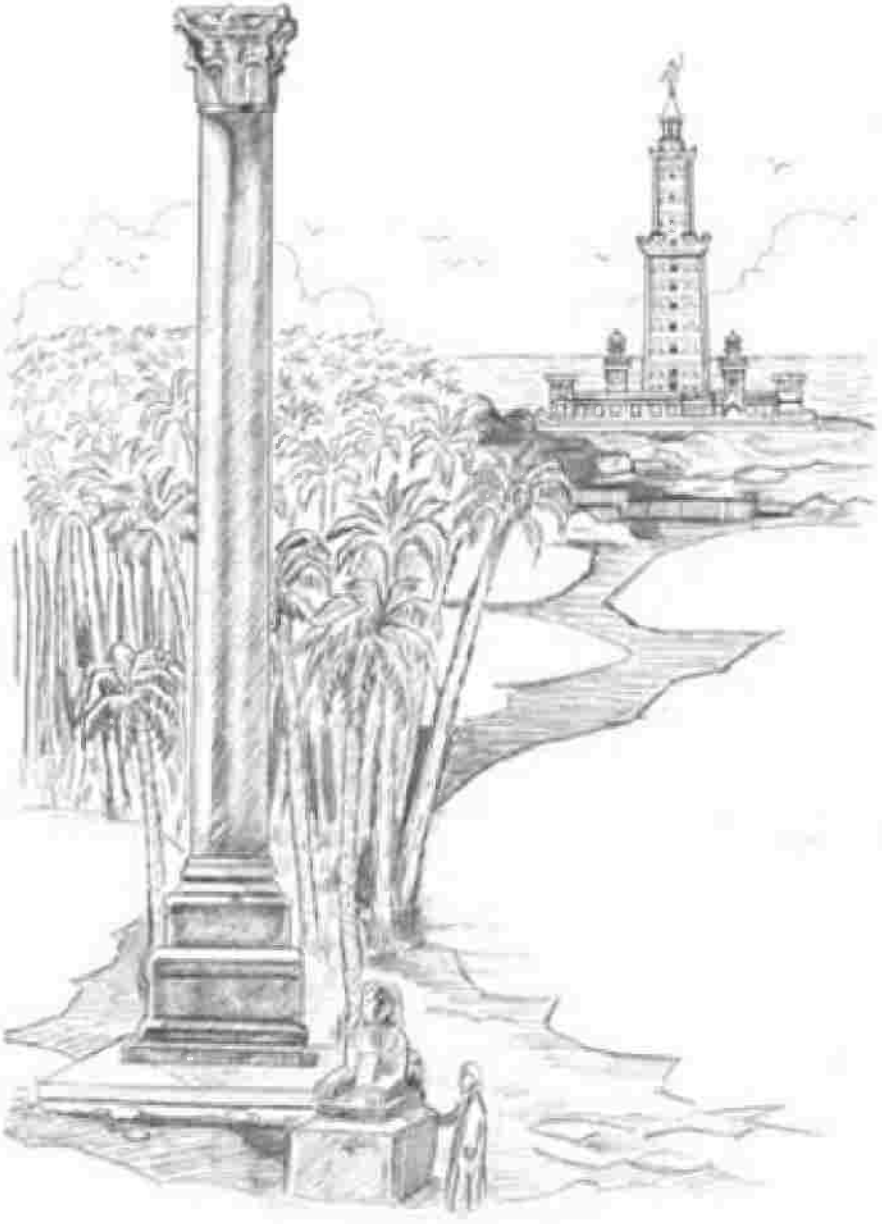

ولم يكن حينئذٍ بخاطري التوغل في البلاد البعيدة، فكل المراد حج البيت والصلاة في الحرم وزيارة قبر المصطفى، لكن الشيخ قال:

– سوف تزور الهند فلابد أن تلتقي بأخي« فريد الدين»، وأخي «ركن الدين زكريا» بالسند، وسوف تبلغ الصين وعليك زيارة أخي «برهان الدين »، وأرجو أن تبلغهم مني السلام.

وهكذا ألقى في روعي التوجه إلى تلك البلاد، وقد تحقق له ما أراد، فقد تجولت في البلاد التي ذكرها وحملت سلامه إلى إخوته، فقد سألت عنهم ولقيتهم، ولم أتصور مطلقًا أن يحدث هذا.

وتنقلت في أنحاء الإسكندرية وزرت شتى مساجدها، ثم اتجهت جنوبًا إلى دمنهور وبلغت «فوة» التي سعيت إليها لألقى الشيخ «عبد الله المرشدي» في زاويته، وأصر على أن يضيفني ثلاثة أيام، وفي المساء دعاني للنوم على سطح الزاوية، وحلمت كأني على جناح طائر عظيم يطير بي نحو القبلة ثم يتجه شرقًا وشمالاً وغربًا، ثم يتجه شرقًا ويمضي بعيدًا حتى يهبط إلى أرض مظلمة خضراء، ثم يتركني هناك ويصعد عاليًا ويختفي.

حكيت للشيخ حلمي فقال:

– سوف تحج وتزور النبي، وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وتبقى بها مدة طويلة، وستقع في شدة ويخلصك «دلشاد

الهندى» ثم تتوجه شرقًا، وسوف تجد الخير الكثير فامض على بركة الله ولا تتردد، فما حلمت به - ليس حلمًا ولكنه رؤيا. أى إنها قابلة للتحقق إذا عقدت العزم.

أدركت حينئذٍ أن الرحلة إرادة الله، وأنها قدرى وعليّ الوفاء، والقيام بما اختارتنى له العناية الإلهية.. وشملنى إحساس بأن الدعوة السماوية ستكون خيرًا لى إن شاء الله ما دامت الإشارات كثيرة وفى اتجاه واحد.

لقد فتح الشيخان عيونى، وأطلقا أخيلة تفكيرى، واستنفرا همتى، وتملكنى شعور غامض بأن هذه البلاد تنتظرنى، بل لقد تصورت أيضًا أن بلادى وأهلى فى المغرب سيسرهم مسعاى، وسوف يتقبلون غيابى مادمت على العلم مقبلاً، وفى رؤية المعمور من الأرض راغبًا.

انطلق السهم من القوس وأصبح من المتعذر الإمساك به وإعادته، وهكذا مضيت أطوف العالم وأجول متنقلاً من بلد إلى بلد على مدى ثلاثين عامًا، وأظن أنى قطعت أطول المسافات التى يقطعها إنسان على الأرض.

لقد زرت وأقمت بأكثر من ألفين وخمسمائة مدينة وقرية، واستخدمت كافة وسائل النقل من الجمال والخيول والعربات والسفن بشتى أشكالها، من أقصى شرق الأرض المعروفة إلى أقصى الغرب.

ودخلت عشرات القصور والقلاع ومئات المزارات والقبور، وآلاف البيوت والمساجد والكنائس والمعابد وصعدت عشرات الجبال، و ركبت البحر عشرات المرات بما يوازى مجموعه السنتين أو الثلاثة، وسرت عشرات الآلاف من الاميال والتقيت بالسلاطين والحكام، وتعاملت مع آلاف الشخصيات وتحاورت مع ثلاثين لغة ولهجة، وكسبت الملايين ثم انفقتها، وتزوجت وأنجبت الأبناء، وقد رحل معظمهم.. بل لقد دخلت فى معارك وأشرفت على الموت مرات كثيرة، وسرت فى صحراوات بلا نهاية الأسابيع والشهور، وكم ذقت الظمأ والجوع والخوف وملاني اليأس، ومع ذلك فقد امتلأت روحي بمحبة البشر والإشفاق عليهم، وامتلأت ذاكرتى بالذكريات التى يصعب جمعها فى كتاب ولا حتى فى مجلدات، وسمعت من الحكايات والتواريخ ما يتعذر قصه بالتفصيل إلا على مدى سنوات. وطالعت آثار الأمم التى زالت، وشاهدت عشرات المعتقدات من غير الأديان السماوية.

لم يكن ذلك جميعه بالإمكان لولا:

١ – التوجيهات الربانية التى وردت على لسان الشيخين.

٢ – حبى للعلم والمعرفة.

٣ – حبى لتأمل الحياة والوجود وكل ما خلق الله.

٤ – حبي للسفر واستعدادي لتحمل الصعاب.

٥ – انتشار الإسلام في كل مكان ذهبت إليه وكثرة من أعانوني.

٦ – حرصي على مقابلة السلاطين وكبار المسئولين والعلماء.

وها أنذا أضع بين أيديكم كتابي:

«تحفة النُظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»

فأنا أعتقد – بكل تواضع – أن تجربتي التي استهلكت أهم سنين عمري من الشباب والكهولة، تكاد تكون بلا نظير، فهي تحفة لمن ينظر فيها ويتأملها؛ لأنها تتضمن الغرائب والعجائب التي لم يجمعها غيري من الرحالة السابقين، ولا أظن أحداً منهم مر بما مررت به، ولا عانى ما عانيت، ولا ذاق ما ذقت أو قابل من قابلت، ولعل أكثر ما يدهش فيما رأيت وجمعت هو عادات البشر وطبائعهم، وأكثرها غريب علينا.

وأحمد الله أن أعانني على إلقاء ضوء كاشف على هذا العالم الفسيح الذي لم نكن نعرفه قبل رحلتي.

* * *

القاهرة

وصلت إلى القاهرة، ويسمونها مصر، فهى أم البلاد وتحمل اسمها، وبها يجرى النيل العظيم الذى يشق البلادَ من شمالها إلى جنوبها، لكنه فى القاهرة أجمل ومحاط بالزروع والحدائق، وعلمت أن المراكب التى تصعد فيه تبلغ ستة وثلاثين ألفًا تحمل الخيرات والخلائق.

وقد زرت مسجد عمرو بن العاص وهو مسجد كبير القدر شهير الذكر، كما زرت المارستان الذى بين القصرين، وهو مستشفى ضخم يمتلئ بالأسِرَّة والأدوية، ولاحظت إقبال الأثرياء على بناء الزوايا وتنافسهم فى ذلك، وكل منها مخصص لطائفة من الفقراء، ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب، ومن عوائدهم فى الطعام أن يأتى خادم الزاوية إلى الفقراء صباحًا، فيسجل ما يشتهيه كل واحد من الطعام، فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان إناء فيه ما طلب. وطعامهم مرتان فى اليوم، ولكل منهم كسوة فى الشتاء وكسوة فى الصيف ومرتب شهرى فى حدود الثلاثين درهمًا، ولهم الحلاوة من السكر كل جمعة، والصابون لغسل الملابس، والأجرة لدخول الحمام، والزيت لإضاءة المصابيح، وللمتزوجين منهم زوايا وللعزاب غيرها، ولكل فرد سجادة خاصة به، ولا يطلب منهم غير حضور الصلوات الخمس وقراءة القرآن.

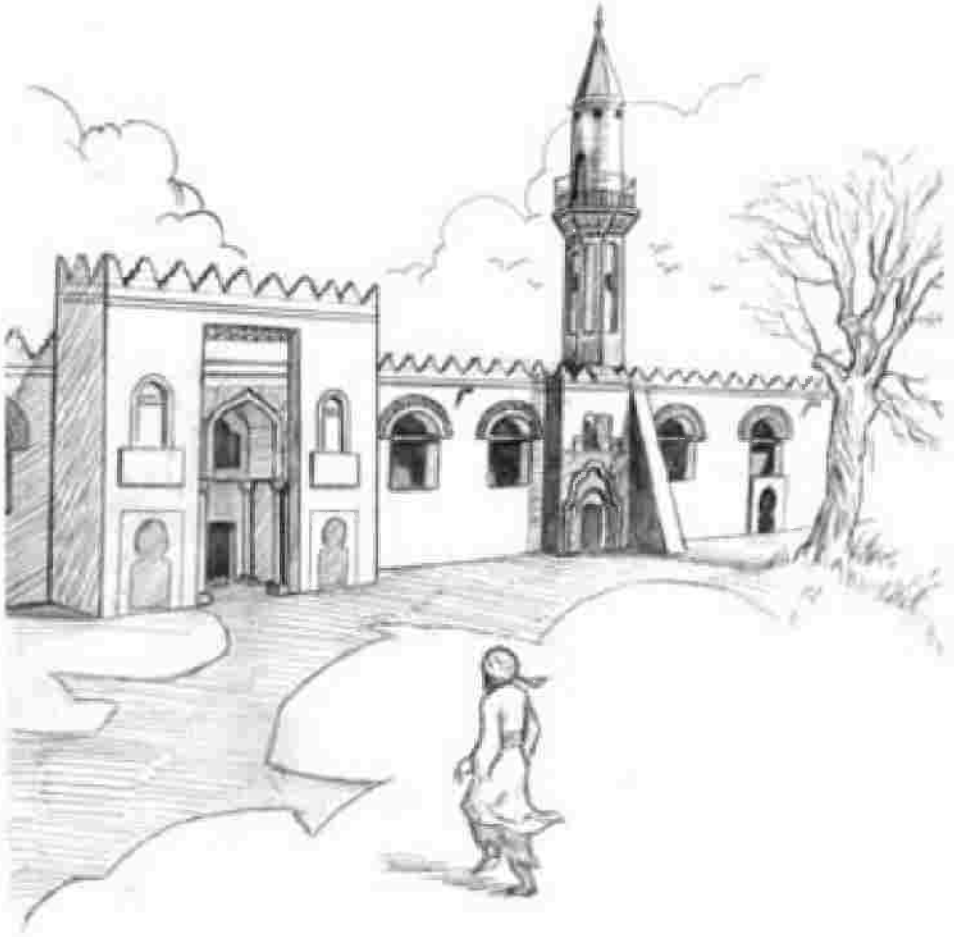

وقد زرت القبر الذي فيه رأس «الحسين» رضي الله عنه، وقبر السيدة «نفيسة» والإمام «الشافعي» وعشرات غيرهم.

وكان سلطان مصر على عهد دخولي هو الملك «الناصر قلاوون» وكان يعرف بالألفي؛ لأن الملك «الصالح» اشتراه بألف دينار ذهبًا، وقد التقيت بعدد كبير من العلماء والفقهاء والصالحين لا أكاد أحصيهم، وتمنيت أن يطول مقامي معهم لأنهل من علمهم، وكان مشهد المحمل وهو يطوف بأحياء القاهرة رائعًا، إذ يركب الفقهاء الأربعة وكبار رجال الدولة والعسكر وكافة المهن في موكب مهيب، يتقدمه الأمير المعين للسفر إلى الحجاز فيتأجج الشوق، وتهفو النفوس لزيارة الأماكن المقدسة.

أعرف أن كل من زار القاهرة عاد إليها وأدام العيش فيها، لكنني لابد أن أمضي نحو الحرم ونحو الشرق على جناح الطائر، الذي أكاد أحس به يهزني ويستحثني للمسير.

* * *

إلى البحر الأحمر والشام

سرت مع الرفاق جنوبًا، فمررنا بمدن كثيرة منها «منية القائد» و«بوش» المشهورة بالكتان و«دلاص» مثل سابقتها ثم «ببا» و«البهنسا»، ومنها إلى منية أبو الخصيب (المنيا الآن)، وهي مدينة كبيرة بها الكثير من المدارس والمساجد والزوايا والعمران، وانتقلت إلى ملوى ثم منفلوط وبعدها أسيوط، وبها كثير من المشايخ ومررت بمدينة «أخميم»، وبها آثار كثيرة للأوائل لم نفهم المكتوب عليها والمنقوش على حجارتها كصور الأفلاك والكواكب والحيوانات والبشر والملوك.

ومن «أخميم» دخلت مدينة «هو» وهي مدينة كبيرة بساحل النيل، وقد سمعت أن بها رجلاً صالحًا هو «أبو محمد عبد الله الحسني» فذهبت إليه للتبرك، ولما سألني عن قصدي أخبرته أني أريد البيت الحرام على طريق «جدة»، فقال:

– لن يحصل لك هذا فارجع، وعليك أن تحج عن طريق الشام فانصرفت، ولم أحفل بكلامه ومشيت في طريقي حتى وصلت «عيذاب»، فلم أستطع السفر، فعدت راجعًا إلى مصر عازمًا السير إلى الحج عن طريق الشام.

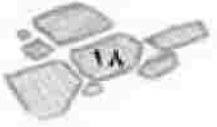

وكنت قد سافرت إلى «قنا»، وهي صغيرة حسنة الأسواق، وبها قبر الولي صاحب البراهين العجيبة «عبد الرحيم القناوي»، ورأيت بالمدرسة السيفية حفيده «شهاب الدين أحمد»، ومنها غادرت إلى «قوص» وهي مدينة عظيمة بها خيرات عميمة، وبها الزوايا العديدة للفقراء وبها الكثير من البلغاء، ثم سافرت إلى «الأقصر»، وهي صغيرة وبها قبر العابد الصالح «أبو الحجاج الأقصري»، ومضيت إلى «أرمنت» و«إسنا» و«أدفو» و«العطوانى»، ومنها اكترينا الجمال واجتزنا الصحراء الخالية من أية عمارة ولكنها آمنة لزيارة قبر «أبي الحسن الشاذلي»، وأرضها كثيرة الضباع وبتنا ليلتنا نحاربها، لكنها نهشت الكثير من طعامنا.

وبعد أن سرنا خمسة عشر يومًا بلغنا «عيذاب»، وهي مدينة كبيرة على البحر الأحمر بها الأسماك وافرة والألبان، وأهلها من قبائل البجاة، وهم سود اللون يلبسون عباءات صفراء ويشدون على رءوسهم العصائب، وعند وصولنا إليها كان البجاة يحاربون الأتراك وخرقوا جميع المراكب ولهذا تعذر السفر، وعدنا إلى «قوص» وركبنا النيل فحملنا إلى «القاهرة» ومنها إلى «بلبيس» ثم «الصالحية»، ومنها دخلنا الرمال وتركنا الوادي والخضرة، ومررنا بالسوادة و«الواردة» و«الطيب» و«العريش» و«الخروبة»، وكان بكل منها فندق صغير يسمونه الخان، وهو منزل كبير مقسم إلى حجرات وحظائر ينزله المسافرون بدوابهم، وبخارج كل خان

ساقية للسبيل وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاج إليه من طعام وشراب له ولدابته.

ومررنا بمدينة اسمها «قطيا» قبل «الفرما» (العريش)، بيوتها من جريد النخل، ويشرب أهلها من بئر، ماؤها مالح قليلاً، وبها سمك كثير، والمدينة مشهورة لدى كل المسافرين؛ لأن بها ما يشبه «الجمرك» الذى لم نر مثله في أى مكان حتى الآن، وهذا الجمرك أو البوابة عليها رجال يأخذون الزكاة من التجار، بعد أن يفتشوا أمتعتهم ويبحثون فيها أشد البحث، ودخلها من ذلك كبير قد يصل إلى نحو ألف دينار ذهب يوميًا، ولا يجوز ولا يسمح لأحد أن يمر إلى الشام عبرها إلا بتصريح، ولا أن يدخل إلى مصر قادمًا من الشام إلا بتصريح، حفاظًا على أموال الناس وإنقاذًا لهم من اللصوص الهاربين، وكذلك حماية للبلاد من جواسيس العراق، ولم أعلم ما قصة جواسيس العراق، إلا أنى سمعت ذلك من بعض الأعراب.

ولذلك فإن بهذه المدينة الدواوين والعمال والكتاب والشهود وغيرهم من أجل دقة تنفيذ المطلوب منهم، والغريب أنى رأيت أيضًا هناك ما لم أر مثله بمكان، وهو من فعل هذه الدواوين التى تراقب الأرض؛ لأنها المعبر الوحيد الذى يمر منه المسافرون بين الشام ومصر.

فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر، ثم يأتى الأمير صباحًا، فينظر إلى الرمل فإن وجد به أثرًا طالب العربان بإحضار

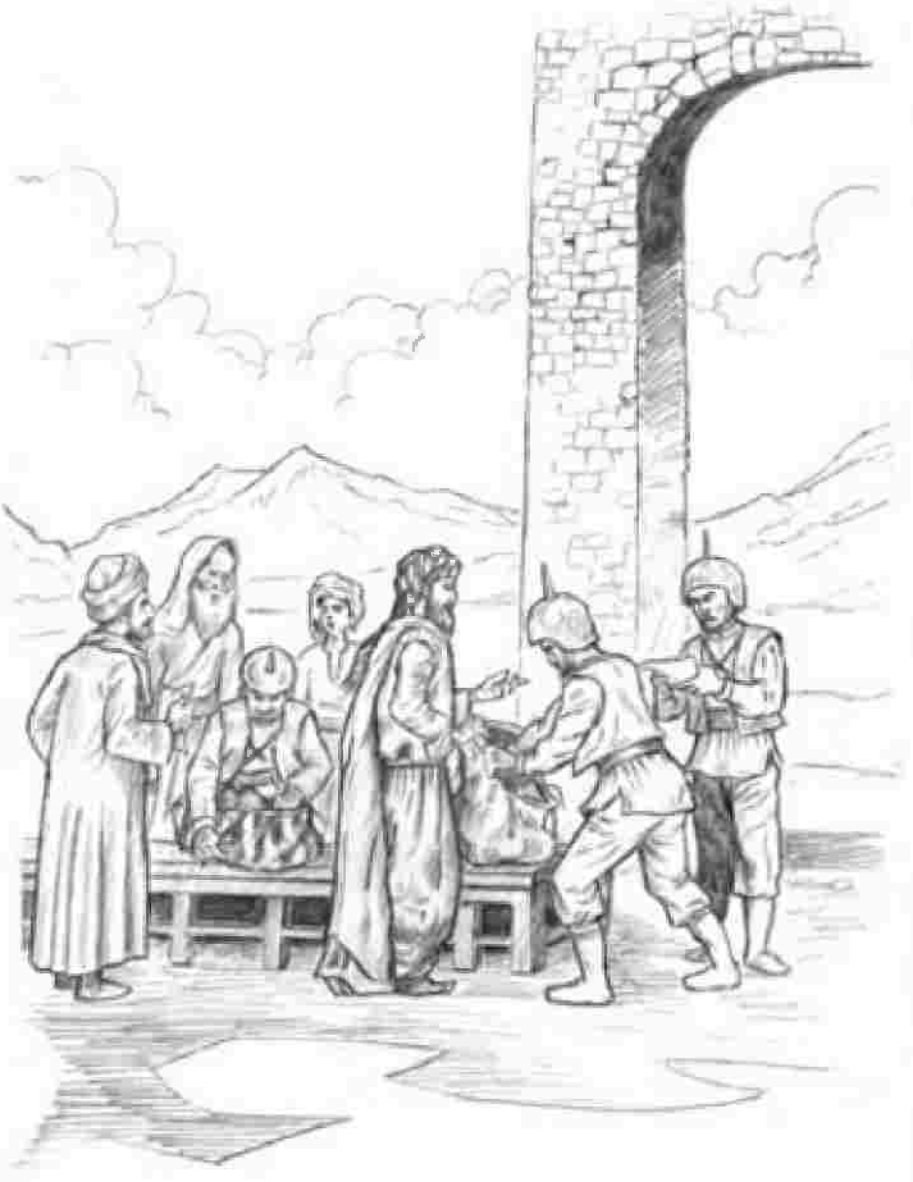

صاحبه، فيذهبون في طلبه، وسهل عليهم الوصول إليه، فيأتون به الأمير، فيعاقبه بما شاء.

ومن هنا مضينا إلى «غزة» وهي أول بلاد الشام مما يلي «مصر»، وهي مدينة عامرة بالخيرات والمساجد، وبقينا بها أيامًا ثم مضينا إلى «الخليل»، وهي بقرب بيت المقدس، وفيها قبر الخليل «إبراهيم» – عليه السلام – وبها حصن كبير وبعض العمران، ومع أنها مدينة صغيرة المساحة فهي كبيرة المقدار تقع في بطن واد، وبها مسجد أنيق الصنعة مبني بالصخر، يقال إن «سليمان» – عليه السلام – أمر الجن ببنائه، وفي داخله قبور «إبراهيم» و«إسحق» و«يعقوب»، وفي مقابلها قبور زوجاتهم، وبشرقي حرم الخليل مقبرة «لوط» – عليه السلام – ثم مسجد اليقين.

ومضيت إلى بيت لحم موضع ميلاد «عيسى» – عليه السلام – وبه أثر جذع النخلة وعليه عمارة كثيرة، والنصارى يعظمونه أشد التعظيم ويضيفون من نزل به.

ثم وصلنا إلى بيت المقدس مصعد رسول الله ومعراجه، وبها المسجد العظيم الذي يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب سبعمائة واثنتين وخمسين ذراعًا وعرضه أربعمائة وخمس وثلاثين، والمسجد كله فضاء وغير مسقف إلا الأقصى، وقبة الصخرة أتقن المباني وأوفرها حظًا من

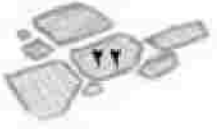

الحسن والجمال، يصعد إليها على درج رخام وكل طرقها بالرخام ومعظم جدرانها مغطاة بالذهب، وهناك القبة الصخرية وتحتها مغارة وإلى الجوار مصعد «عيسى» - عليه السلام - وقبر «مريم» - عليها السلام - . وفي كل شبر بالمدينة نور وإشراق وتاريخ فبقيت أيامًا تلو أيام، ثم غادرت إلى «عسقلان» وهي مدينة ذات تاريخ وأمجاد، لكنها كانت خرابًا، ورأيت فيها مسجدًا عظيمًا هو مسجد عمر، وبها وادي النمل المذكور في القرآن وقبور كثيرة للأولياء الصالحين وزوايا عديدة للفقراء ينفق عليها ملك مصر.

* * *

حلب ودمشق

زرت بعد «عسقلان» و«الرملة» و«نابلس» و«عجلان» و«اللاذقية» وكلها مدن عامرة، أما «صور» فكانت خرابًا مع أن بها بقايا عمارة حسنة وكانت ميناءً شهيرًا للسفن الصغيرة، سافرت منها إلى «صيدا»، ثم غادرت إلى «طبرية» حيث مسجد الأنبياء، ففيه قبر «شعيب» و«موسى» - عليهما السلام - وقبر «سليمان» و«يهودا»، وفيها الجب الذي ألقي فيه «يوسف» - عليه السلام -، وقد شربنا منه الماء المتجمع من المطر، وسرنا إلى بيروت وبعدها إلى «طرابلس» القديمة و«طرابلس» الجديدة، وانتقلتُ إلى حصن الأكراد وإلى «حمص» التي تضم قبر «خالد بن الوليد»، ومنها إلى مدينة «حماة» وهي مدينة جميلة وبديعة تنتشر فيها السواقي ويشقها نهر العاصي.

وزرت «المعرة» التي ينتسب إليها الشاعر أبو العلاء المعري، وعلى بعد ميل منها قبر أمير المؤمنين وخامس الخلفاء الراشدين «عمر بن عبد العزيز»، ثم سرنا إلى «سرمين»، أكثر شجرها الزيتون وبها عدة مصانع للصابون والملابس، وأهلها سبابون يكرهون رقم ١٠ ولا يذكرونه أبدًا في حساباتهم، فإذا أراد أحدهم أن يحصي شيئًا قال ٧، ٨، ٩، ثم تسعة وواحد، وفيها مسجد به تسعة قبال (جمع قبلة) ولم يجعلوها عشرة.

أما «حلب» فتحتاج إلى كتب لوصف جمالها وكثرة معالمها وقلاعها وحوادثها، وطيب هوائها وطيبة أهلها وجلال مكانتها، ويقال: إن الخليل «إبراهيم» كان يتعبد بها، وقال فيها الشعراء ما يكفي تصويراً لحسنها وعلو قدرها خاصة فضل علمائها.

ثم سافرت إلى «تيزين»، و«أنطاكية» و«صهيون»، ومررت بقرى كثيرة تحمل كل منها اسم حصن، ومعظمها كانت قلاعاً ومعبراً للجنود، وأرضاً لمعارك ضارية عبر التاريخ.

وزرت الجبل الأقرع وهو أعلى جبل بالشام وسكانه من التركمان، ومنه إلى جبل «لبنان» وهو خصيب جداً، فيه كل الفواكه والعيون والظلال والجمال، وانتقلنا إلى بعلبك الجميلة ذات الصناعات الحسنة.

ثم سرنا إلى «دمشق» الفيحاء مقر أول دولة إسلامية – هي الدولة الأموية – وعندما دخلت «دمشق» كان قد مر عام وشهران منذ غادرت «طنجة» مسقط رأسي، قضيت نصفها في مصر ونحو ربعها في تونس، وكان مرادي عند زيارة «دمشق» مدينة المدن وجنة الشرق – كما قال عنها ابن جبير– أن أقيم بمسجدها الأموي الكبير ما استطعت، حتى أزود روحي بالمدد الحقيقي لطالب علم، فهناك ثلاثة عشر إماماً، والقضاة وعلماء الدين والفقه والبلاغة، وحلقات التدريس وتجويد القرآن. وكان المسجد كما توقعت، بل أفضل من حيث البناء

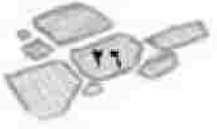

والتصميم والتجهيز والارتفاع والضخامة والجمال والجاذبية ،وما حوله من الأسواق والصناعات.

وقد زرت جبل « قاسيون » في شمال « دمشق »، وفي الجبل مغارة من الدم التي يقال أن بها آثاراً من دم « هابيل بن آدم »، ويقال إن عدداً كبيراً من الأنبياء صلوا على هذا الجبل، وفي آخر الجبل الربوة المباركة التي أوى إليها السيد المسيح وأمه عليهما السلام، وبها بيت يقال إنه مصلى « الخضر » عليه السلام.

والأمر الملحوظ في كل بقعة من بقاع « دمشق » كثرة الحدائق الغنّاء والأنهار والأرض الخصيبة والأشجار والورود ولأهلها من ذلك نصيب.

ومما لاحظته بدمشق الأوقاف التي لا تحصى أنواعها لكثرتها، فمنها أوقاف للعاجزين عن الحج، فيعطى لمن يريد الحج ولا يقدر ما يكفيه، ومنها أوقاف لتجهيز البنات للزواج اللائي يعجز أهاليهن عن تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكاك الأسرى، وأوقاف لأبناء السبيل، وأوقاف لتعديل الطريق ورصفها؛ لأن كل زقاق في دمشق له رصيفان في جنبيه، يمر عليهما السائرون على الأقدام، ويمر في الوسط الراكبون الدواب والعربات.

رأيت مملوكًا سقط منه طبق من الصيني فتكسر، فقال له الناس وقد رأوه حائراً وحزينًا: اجمع شقفها واحملها معك إلى مسئول

الأوقاف يعوضك، وسرت معهما لأتأكد بنفسي، وقد حدث فعلاً ما ذكر الرجل، فعاد الغلام سعيداً؛ لأن صاحبه لن يعاقبه على الطبق المكسور.. جزى الله خيراً من يفعل مثل هذا الخير.

وهناك أوقاف لطالبي العلم أو المتفرغ للعبادة أو كفالة الأيتام، فالكل يحظى بالرعاية ولا يضطر للسؤال. وعموماً فالخير في «دمشق» وفير والأمن والرضا والسلام.

* * *

إلى الحجاز

رحلت من «دمشق» مع الركب المتوجه إلى «الحجاز»، ونزلنا أولاً بقرية «الكسوة» ومنها إلى «الصنمين» وإلى «زرعة» و«بصرى»، وإلى «معان» وإلى «عقبة صوان»، وهي آخر العمران، بعدها صحراء يقال عنها: «داخلها مفقود وخارجها مولود»، فسرنا بها أيامًا حتى وصلنا «تبوك» أول بلاد «الحجاز».

ومن عادة حجاج الشام إذا وصلوا «تبوك»، أن يأخذوا أسلحتهم، ويجردوا سيوفهم، ويضربوا بها النخل. ويقولون: «هكذا دخلها الرسول ﷺ»، و«تبوك» بها عين ماء لا ينضب ماؤها، وتبقى الجمال حولها أربعة أيام للراحة والسقاية، وتكون سقايتهم في أحواض مصنوعة من جلد الجاموس ويملئون القرب مقابل دراهم للسقايين، ثم رحلنا من تبوك، وسرنا بلا توقف ليلاً ونهارًا خوفًا من الصحراء وما بها من لصوص وحيوانات، وحمدنا الله، وأخيرًا وبعد المسير أيامًا وصلنا المدينة حيث الحرم النبوي الشريف ولقاء الأصدقاء من الفقهاء والمجاورين، وعددهم كبير لا يطيقون الابتعاد عن الحرم وقبر المصطفى.

وبالمدينة مسجد قباء، وحجر الزيوت، وجبل أحد، وقبر «حمزة»، ومسجد «علي» ومسجد «سلمان الفارسي»، وقد بقينا بالمدينة أربع ليال لم ننل خلالها من النوم إلا القليل، فالكل على نور الشموع يذكر الله ويقرأ القرآن ويستمع للمدائح النبوية.

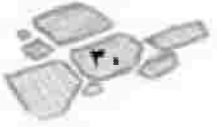

رحلنا من «المدينة» فأحرمنا بمسجد «ذى الحليفة» بعدها بخمسة أميال وهو آخر حرم «المدينة»، وبالقرب منه «وادى العقيق»، ولم أزل مليبًا فى كل سهل وجبل إلى «شعب على» وبعده «الروحاء» و«الصفراء»، ونزلنا ببدر ومنها إلى «أم القرى» حيث الوادى المبارك وغاية المنى.

«مكة المكرمة» مدينة كبيرة مستطيلة فى بطن وادٍ تَحفُّ به الجبال غير الشاهقة، والمسجد الحرام وسط البلد والكعبة وسط المسجد عليها أستار من الحرير الأسود مكتوب عليها بالأبيض، تكسو الكعبة بالكامل، وهى لا تخلو من الطائفين أبدًا بليل أو نهار، وتجد الحمام يطير أعلى الحرم كله، ولكنه ينحرف إلى أى جهة إذا اقترب من الكعبة وأبواب المسجد تسعة عشر بابًا، ومن المشاهد الكريمة بمقربة من المسجد قبة الوحى، وهى فى دار «خديجة» أم المؤمنين.

ومن الجبال المحيطة بمكة، جبل «أبى قبيس»، ويقابل ركن الحجر الأسود، وجبل «قعيقعان»، والجبل الأحمر، وجبل الطير، وجبل ثور، وجبل حراء.

ولأهل «مكة» الأفعال الجميلة، والأخلاق الحميدة، من ذلك أنهم إذا صنع أحدهم وليمة يبدأها بإطعام الفقراء المنقطعين والمجاورين، ولهم ظرف ونظافة فى الملابس وأكثر لباسهم البياض، ويستعملون الطيب ويكثرون السواك بعيدان الأراك، ونساء مكة

ذوات عفاف يكثرن من التطيب حتى ليغلب على الحرم رائحة طيبهن.

وأهل «مكة» يحتفلون احتفالات عظيمة يشارك فيها الجميع، من الأمير إلى أفقر الفقراء بالطبول والخيول، إذا أهلّ رجب وفي السابع والعشرين منه، وفي ليلة النصف من شعبان، وإذا ظهر هلال رمضان فتضاء الشموع والمشاعل، وتضاء المساجد والطرق والبيوت ويقرأ القرآن وتولم الولائم.

يمثل الحرم المكي الشريف جوهرة المدينة ومحور نشاطها والتفاف الناس جميعًا حوله في كل مناسبة أو احتفال، فالحرم هو البيت الكبير للناس جميعًا، وهو مناط الدعاء واللقاء ومكان الاجتماع وساحة الافراح، وتروج التجارة من حوله وتُعقد الصفقات، بل ويُحمل المرضى إلى أسواره لعل الله يمن بالشفاء.

وهناك طفنا ولبسنا وأدينا المناسك في «منى» و«مزدلفة» و«عرفة»، وعدنا نطوف وندعو ونقرأ القرآن، ولما تتعب الأجساد تميل إلى أحد الأركان نلتمس بعض الراحة، لكن القلوب والأرواح أبدًا لا تنام؛ لأنها تنهل من عبق الأرض الشريفة، وتصب في الوجدان حبًا لهذه الأماكن يتجدد ويسري في الدماء.

ها هنا تمت الرغبة وتحقق المراد من الرحلة التي تركنا من أجلها الأهل والوطن، ولا تزال الأمنية الأخيرة أن يتقبل الله منا سعينا وطوافنا

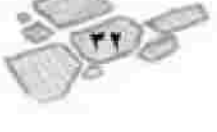

وكافة المناسك، وتكتمل أركان إسلامنا، ونغتسل من الأدران، ونستقبل مرحلة جديدة نأمل أن تكون في ميزان الحسنات إن شاء الله.

* * *

من مكة إلى العراق

خرجنا من مكة في جمع كبير من العراقيين والفارسيين، وَتَنَبَّه على الكُلّ ألا يخرج من الركب لحاجة ما دون علاقة أو إشارة خشية أن يضل، وكانت معنا قِرَبُ المياه والجمالُ لحمل من لا يستطيع المشي والأطعمة والفواكه، وأكثر مشينا بالليل، ومنا من يحمل المشاعل الكثيرة التي أضاءت الليل وأبعدت الخطر.

توالى المسير ومررنا بعشرات القرى التي كان أهلها يخرجون إلينا بالماء والفواكه حتى بلغنا «القادسية» أول حدود العراق وكانت عامرة ولكنها خربت، فلم يبق إلا النخيل، ثم نزلنا إلى «النجف» وهي مدينة مشهد «علي بن أبي طالب» - رضي الله عنه - مدينة كبيرة وجميلة بها أسواق كثيرة ونظيفة، وبها زوايا ومدارس، ومعظم حيطانها بالقيشاني الملون البديع.

وأغلب أهلها من التجار يسافرون لجلب البضائع، وهم أهل شجاعة وكرم، وقد صحبتهم فَسَرَّتْني صحبتهم، وأعجبتني طباعهم لولا المبالغة في حب «علي» - كرم الله وجهه - وتفضيله على غيره من الخلفاء الراشدين.

ومشهد «علي» يبدأ بالعتبة وهي من الفضة، يقبلها من ينوي الدخول، والقبة كبيرة ملونة بالزخارف والآيات، وأرضها مفروشة بالسجاجيد الحرير والصوف وغيرهما، وبها قناديل من الذهب والفضة، وإلى جوارها ثلاثة قبور لآدم و«نوح» و«علي»، وبين القبور طوق ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب، يغمس الزائر فيها ويدهن وجهه تبركًا.

وبعد أن زرنا أمير المؤمنين «عليًا» - رضي الله عنه - تحرك الركب إلى «البصرة» آخذين من جانب الفرات، وبعد أيام وصلنا إلى «الرواق»، وهو مكان فسيح به الآلاف من الفقراء، وصادف وصولنا وصول الشيخ «أحمد كوجك» حفيد «ولي الله أبي العباس الرفاعي» الذي قصدنا زيارته، وكان قادمًا من بلاد الروم قاصدًا زيارة قبر جده، وبعد صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء في الرقص، ثم صلوا المغرب وقدموا الموائد وعليها الأرز والسمك واللبن والتمر.

وقد رأيت بعد ذلك بسنوات مثل هذه العادة العجيبة عند طائفة الحيدرية بالهند، فقد أقاموا حفلاً راقصًا جمعوا فيه أحمالاً كثيرة من الحطب وأضرموا فيها النار، ومضى المنشدون يغنون، والعازفون يضربون على آلاتهم، وأهل الجماعة يرقصون في النار، ويتمرغون على

أنغام الموسيقى، وطلب مني كبيرهم قميصًا كان معي فلبسه ومضى يتمرغ ويضرب النار مع الآخرين حتى أطفئوها، وأعاد القميص إليّ فإذا به لم يمس وليس به أثر للنار أو الغبار.

* * *

من بلاد الفرس إلى بغداد ومكة

ركبت من ساحل «البصرة» زورقًا صغيرًا إلى «الأبلة» ومنها إلى «عبّادان» في بلاد «فارس»، ومنها إلى «ماجول» و«تستر» و«فيروزان» و«أصفهان» و«شيراز»، وكلها بلاد خير تجرى فيها الأنهار وتورق الأشجار وتنتشر البساتين، وبها أسواق عامرة وأهلها طيبون يحسنون الترحيب بالغرباء، والمساجد فيها كثيرة وسرنى اهتمامهم بالفقراء، ولقيت كعادتى الفقهاء والعلماء وزرت الأولياء وهم لا يحصون بتلك البلاد.

وفى «شيراز» تعجبت لعادة أهلها، فعندما يموت للرجل ولده أو زوجته يتخذ له قبرًا فى ركن من داره ويدفنه فيه، ويفرش المكان بالحصر والسجاد ويشعل الشموع عند رأس الميت ورجليه، ويفتح بابًا إلى ناحية الزقاق أو الشارع يفضى مباشرة إلى هذا الركن، ليدخل القراء فيقرءون القرآن طلبًا للرحمة بالميت، وعلمت أن أهله يطبخون الطعام ويحسب للميت نصيبه، فكأنه لم يبرح المكان.

وصعدنا إلى «كربلاء» حيث مشهد «على» - رضى الله عنه - ثم إلى «بغداد».. تلك المدينة العامرة وهى مثوى الخلفاء ومقر العلماء، بها جسران فوق نهرى دجلة والفرات، وبها حمامات جيدة، وبحى «الرصافة» قبور كثيرة للخلفاء العباسيين، وكلهم شهد مجد

الدولة الإسلامية في القرون الوسطى من الثالث الهجرى حتى الثامن، ومنها خرجت إلى «تبريز» وعدت إلى «بغداد»، ثم تجهزت للحج، ووصلنا إلى مدينة «تكريت» فالموصل ثم «نصيبين» و«سنجار» ثم «الكوفة» و«القادسية».

وأصابتنى عند خروجنا من الكوفة إسهال، فكنت أضطر للنزول من أعلى المحمل مرات كثيرة فى اليوم حتى وصلنا «مكة»، وكنت ضعيفًا بحيث أديت المناسك راكبًا على فرس، وفى منى تحسنت حالى واكملت على قدمى وقررت الإقامة بمكة تلك السنة، متفرغًا للعبادة، وأقمت مجاورًا بها سنة أخرى، وكنا قد أصبحنا فى عام ٧٣٠هـ، أى مضى على تركى «طنجة» خمس سنوات، ثم اشتقت للارتحال فعزمت على زيارة اليمن، ومررت بجدة العامرة بالمصانع القديمة.

* * *

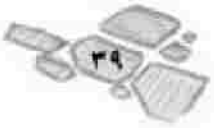

اليمن والصومال

تعتبر « جدة » هي نصف الطريق إلى اليمن، ولم نمكث فيها طويلاً؛ لأن الماء كان قليلاً بسبب قلة المطر، وينقل الماء إليها عادة من مدن تبعد عنها مسيرة يوم كامل (أي نحو عشرة كيلو مترات) والبيوت في الغالب تخزن الماء في جب مخصص لذلك مبني بالحجر المتين الأملس.

وركبنا البحر من « جدة »، وهذه هي المرة الأولى التي أركبه فيها طوال ما يزيد على خمس سنوات، وقد سبق أن ركبت الأنهار في مصر وفارس والعراق.

كانت الريح طيبة لمدة يومين فقط، ثم تغيرت وهاجت ومنعت تقدمنا، ودخلت الأمواج إلى المركب، وتقلبت كثيراً، وأحدثت للناس الدوار، وظل حالنا في خطر حتى وصلنا إلى مرسى « رأس دوائر » بين « عيذاب » و« سواكن » فنزلنا به، ووجدنا بساحله بيضَ نعام مكسوراً تجمعت فيه المياه فشربنا وطبخنا، وكان هناك خليج صغير من البحر محصور داخل الصحراء يتجمع فيه السمك، كنا نجمعه بثيابنا، كل سمكة طول الذراع واسمه اليورى، فمضينا نأكل منه عدة أيام حتى جاءنا أهل المنطقة وهم من البجاة فاشترينا منهم عدداً من الجمال، وسافرنا إلى الجنوب في أرض صحراوية تملؤها الغزلان التي لم تكن تفر منا؛ لأنها تأنس للإنسان بسبب عدم صيد البجاة لها، ثم وصلنا إلى

«سواكن»، وهي جزيرة خالية من الماء والزرع والشجر ويجلب لها الماء بالقوارب، بها صهاريج يجتمع بها ماء المطر، وبها لحوم النعام والغزلان والماعز، ثم ركبنا البحر إلى اليمن، تسير بنا المراكب نهاراً فقط ثم نرسو على الشاطئ إذا حل المساء؛ لأن بالبحر أحجاراً كثيرة لا نراها بالليل، وبعد ستة أيام من خروجنا من جزيرة «سواكن» بلغنا أول مدن اليمن وهي «خلي» ثم انتقلنا إلى «السرجة» و«الحادث» و«زبيد» ثم «تعز»، و«صنعاء» و«عدن»، ولقد لقيت فيها الفقهاء والأمراء فأحسنوا استقبالي وأكرموني غاية الكرم.

وسافرت من مدينة «عدن» في البحر أربعة أيام، ووصلت إلى مدينة «زيلع»، وهي مدينة «البرابرة»، بها سوق كبيرة للماعز التي تحمل من بلاد الحبشة وبلادهم كبيرة تنتهي بمقديشو، ومنها يجلب الصندل والأبنوس والعنبر والعاج.

ثم سافرنا بالبحر خمس عشرة ليلة حتى «مقديشو»، وهي مدينة كبيرة تمتلئ بالجمال التي يذبحون منها مائتين كل يوم، ومن عادة أهلها كلما وصل مركب إلى المرسى تتجه القوارب إليه، ويتقدم كل شاب إلى تاجر المركب يطبق فيه طعام ويقول: «هذا نزيلي»، ويحق له أن ينزل التاجر عنده، إلا من كان كثير التردد إلى البلد وحصلت له معرفة أهله فإنه ينزل حيث يشاء.

وعندما اقترب مني شاب بطبقه، وقال للجميع: «هذا نزيلي».

فقال له التجار:

- هذا ليس تاجراً وإنما فقيه.

فأسرع الشاب يقول: هذا نزيل القاضي.

وفي هذه البلاد خيرات كثيرة وقد أكلت فيها المانجو لأول مرة، وعادتهم في السلام كعادة أهل اليمن، يضعون سبابتهم في الأرض ثم يجعلونها على الرأس ويقولون: «أدام الله عزك»، واغلبهم حفاة إلا الأمير والقضاة وبعض من علية القوم.

وركبنا إلى «كلوا» وهي مدينة ساحلية كبيرة، أهلها شديدو السواد ولهم شرطات في وجوههم، وكل بيوتها من الخشب، والأمطار بها كثيرة، ويتعرضون كثيراً لعدوان الزنوج الذين لا دين لهم فينهبون أغنامهم وخيراتهم، ولذلك فهم دائماً في حرب معهم لصد غزواتهم.

وركبنا البحر من «كلوا» إلى مدينة «ظفار»، وهي آخر بلاد اليمن على ساحل المحيط الهندي، ومعظمها صحراء وعمالها قليلون، وسوقها خارج المدينة، لكنها قذرة مغمورة بالذباب؛ لكثرة ما يباع فيها من الفواكه والأسماك، وأكثر سمكها السردين، وتأكل الدواب فيها هذا السردين وكذلك تأكله الأغنام، وهذا غريب، فالحيوانات نباتية. ويزرعون الذرة، وإذا أرادوا ريّ المزروعات حملوا إليها الماء من بئر كبيرة بعيدة وعالية، يصنعون لها دلواً كبيراً يربطونه بالحبال ويملئونه

بالماء ويربطونه بالحبال، ويدفعه العمال ليهبط بالتدريج إلى أن يصب في حقولهم.

وأهل المدينة طيبون محبون للغرباء، لباسهم القطن الذي يشترونه من الهند، ويشدون الغيوط على أوساطهم بدلاً من السراويل، ويغتسلون عدة مرات في اليوم من شدة الحر.

والمسافة بين «ظفار» والهند تحتاج إلى شهر كامل سفراً بالبحر إذا كانت الريح مواتية، وبين «ظفار» و«عدن» مسيرة شهر في الصحراء، وبينها وبين «حضرموت» ستة عشر يومًا، وبينها وبين «عمان» عشرون يومًا.

ويعيش معظم أهل مدينة «ظفار» على التجارة، وهم متواضعون حسنو الأخلاق، والمدينة كثيرة المساجد وبها مصانع الحرير والقطن والكتان، والنساء يلبسن السواد دائمًا ويصاب كثير من أهلها بداء انتفاخ القدمين، ومن عاداتهم التصافح في المساجد، فبعد الصلاة ينقسم المصلون إلى صفين: صف يقف بحذاء القبلة ويمر عليه الصف الثاني فيتصافح الجميع بعد صلاة الصبح والعصر والجمعة.

ومن خواص هذه المدينة وعجائبها أنه لا يقصدها أحد بسوء إلا عاد عليه مكروه، وامتنعت عليه، وقد ذكر لي الكثير في هذا المجال.

وفي المدينة مقبرة أحد الأسلاف العظام هو الملك المغيث وهي محل تقديرهم وتعظيمهم، يستجير بها من طلب حاجة فتقضى له،

ومن عادة الجند أنه إذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم استجاروا بهذه التربة وأقاموا إلى جوارها إلى أن يعطوا أرزاقهم.

ووصلنا بعد مسيرة نصف يوم إلى «الأحقاف»، وبها منازل «عاد»، وبها قبر «هود»، وبها بساتين كثيرة ممتلئة بالموز كبير الحجم، وهو شديد الحلاوة، وبها جوز الهند الذى لا يوجد ببلاد العرب، وهو أغرب الأشجار شأنًا، فشجره يشبه شجر النخيل، والجوزة تشبه رأس بنى آدم، وعليها ليف شبه الشعر، ومن هذا الليف يصنعون حبالاً يخيطون به المراكب عوضًا عن مسامير الحديد.

وسلطان البلاد لا يخرج أبدًا ولا يراه أحد، إلا فى يوم الجمعة، فيخرج للصلاة ويركب جملاً مستورًا بستر أبيض منقوش بالذهب، ثم يعود بعد الصلاة إلى داره، وعادته أن لا يقف أحد فى طريقه ولا يسعى أحد لمحاولة رؤيته أو الحديث إليه أو تقديم شكوى أو حتى الشكر والتحية، ومن يفعل ذلك يضرب أشد الضرب، فإذا سمع الناس بخروجه فروا عن الطريق وتجنبوا موكبه.

وركبنا البحر إلى «عُمان» وأوشكنا على الغرق عدة مرات، لكن الله سلَّم، ووصلنا إلى «مصيرة» وهى جزيرة، ومنها إلى «قلهات»، وبعد مسيرة سبعة أيام فى الصحراء وصلنا «عمان»، فبقينا أيامًا فى أهم مناطقها «نزوى» فى سطح جبل تحف بها البساتين والأنهار. وسافرنا منها إلى «هرمز»، ومن أعجب ما رأيت رأس سمكة كأنه رابية.

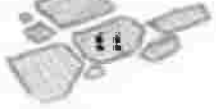

وسرنا لمدة أربعة أيام حتى وصلنا «جرون» وتعرضنا لريح السموم وللصوص من الأعراب، وقيل لي: إن هذه الريح قد تقتل الشخص إذا كانت شديدة، وعند غسله تنفصل بعض الأعضاء عن بعضها، ومضينا إلى مدينة «لار»، ومنها إلى «خُنج بال» لزيارة الشيخ «أبي دلف» الولي الصالح، وكان أغلب زيارتنا لهذه القرى بحثًا عن الصالحين لنيل البركة وتحصيل العلم، ومعرفة أسرار الزهد والدرجات العالية من العبادة وما تفيض به على صاحبها من الكرامات.

ثم سافرنا إلى مدينة «قيس» وهي على ساحل المحيط الهندي وبها مغاص اللؤلؤ، وأغلب أوقات الغوص في إبريل ومايو؛ حيث تتجمع القوارب من «فارس» و«البحرين» و«القطيف» وغيرها، ويهبط الغواصون بعد أن يغطوا وجوههم ويربطوا الحبال حول خصورهم، ويبقون تحت الماء ساعتين أو أكثر، ويجمع الغواص الصدف المدفون في قاع البحر فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة ويحمله في مخلاة جلد معلقة برقبته، فإذا أراد الخروج حرك الحبل، وصعد ويفرغ المخلاة، ويفتح الصدف فإذا في جوفها قطع لحم إذا تعرضت للهواء تجمدت وأصبحت اللؤلؤ، وبعد تجميع كل ذلك يأخذ السلطان الخمس والباقي يشتريه التجار من الغواصين.

وبلغنا البحرين ثم «القُطيف» و«هجر» و«الحسا» ثم «اليمامة»، ثم اتجهنا إلى مكة للحج وكنا سنة ٧٣٢ هـ.

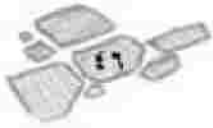

ولما انقضى الحج توجهت إلى «جدة» عازمًا على الركوب إلى اليمن ومنها إلى الهند، لكن ذلك لم يتحقق لي ولم يتيسر لي العددُ الكافي من الرفاق فبقيت في جدة أربعين يومًا، إلى أن لقيت رجلاً يعتزم السفر بمركبه إلى غرب البحر الأحمر، وينزل بالقصير المصرية .

ولما عاينت المركب قبل الركوب توجست منه ولم يعجبني، ورغم رغبتي الشديدة في السفر فقد أبيت، وبعد أيام علمت أن الرجل غرق مع مركبه وكان به سبعون حاجًا، ثم ركبت البحر بعد ذلك إلى «عيذاب» وردتنا الريح إلى «رأس دوائر» واستكملنا الطريق سيرًا في الصحراء تسعة أيام.

ثم وصلنا إلى «العطواني»، وهي على ضفة النيل مقابلة لمدينة «أدفو»، وركبنا النيل إلى «إسنا» ثم «أرمنت» و«الأقصر» وزرنا «أبا الحجاج الأقصري» ومررنا بكل مدن وقرى صعيد مصر بحذاء النيل، ومنها - كما سبق أن فعلنا - إلى «القاهرة» و«بلبيس» و«سيناء» و«غزة» و«الشام» و«بيروت» و«طرابلس» ثم «اللاذقية».

* * *

إلى بلاد الترك

من «اللاذقية» ركبنا البحر المتوسط متجهين غربًا فنزلنا «العلاية» بعد عشرة أيام وهي أول بلاد الروم وجمعت من المحاسن الكثير، فأهلها أجمل من رأيت حتى الآن صورًا وأنظفهم ملابس وأطيبهم مطاعم وأكثرهم شفقة، ولذلك يقال البركة في الشام والشفقة في الروم (الترك)، إلا أنهم يقبلون على الحشيش ولا يرونه مكروهًا، والبلاد كثيرة الأخشاب وتحمل إلى «دمياط» بمصر، وسافرت منها إلى «أنطالية»، وهي مدينة ساحلية تطل أيضًا على البحر المتوسط، وهي عامرة بالبساتين وعيون الماء، ويجود بها المشمش الذي يصنع منه قمر الدين ويصدر إلى مصر، ودرنا في بلاد مجاورة وسرنا شرقًا إلى «قونية».

و«قونية» مدينة كبيرة ذات شوارع فسيحة لم أر مثلها من قبل وأسواقها مرتبة، وبها قبر «جلال الدين» الذي وضع كتابه الضخم «المثنوي» بالفارسية، عُرِفَ بالبراعة في الفقه وكافة العلوم الإسلامية، وشُغِلَ بالرياضيات ونظم الأشعار.

وصلنا إلى «قيسارية» و«أرزنجان» ثم بلغنا مدينة «أرز الروم» التي تشقها ثلاثة أنهار، نزلنا بها في زاوية الشيخ «طومان» الذي تجاوز مائة وثلاثين عامًا، وقد رأيته يمشي مستندًا على عصاه حريصًا على الصلاة، ولكنه لا يستطيع الصوم وخدمنا بنفسه عندما كنا

نجلس للطعام.

ومررنا بمدن عديدة وقرى كثيرة في بلاد الترك شمالي العراق وإيران حتى بلغنا «أزمير» بعد أن تعرضنا للسرقة رغم أن البعض نبهنا، ففقدنا فرسين بسرجيهما ونحن نيام، ومع ذلك فقد تلقينا التكريم والترحيب من الجميع خاصة من السلاطين والأمراء، وكانوا يغدقون علينا الهدايا والطعام والخيول، ويشملوننا بالحماية في أغلب البلاد.

سرنا وسط جبال عالية أيامًا حتى وصلنا إلى «بلي كسري» ثم «برصى» التي تمتلئ بعيون الماء والبساتين، وقد علمنا أن بها نهرًا ماؤه شديد الحرارة يشفي من الأمراض فتوقفنا بها، ورأينا النهر يصب في بحيرة كبيرة عليها بيتان: أحدهما للرجال والآخر للنساء، والمرضى يستشفون بهذا الماء من كافة الأمراض ويأتي إليها الراغبون من أقاصي البلاد، وزرت الفقيه «مجد الدين» وهو متعبد ناسك، يصوم الدهر ولا يكتفي برمضان أو غيره، ويفطر كل ثلاثة أيام، ولا يأكل إلا من صنع يده، ولا منزل له ولا أثاث ولا ملابس إلا ما يرتديه، وينام في المقابر.

والتقيت في هذه المدينة بالشيخ المصري الصالح «عبد الله» وهو عالم كبير ورحالة عظيم، سبقني إلى التجوال في البلاد طلبًا للعلم وتأملاً في الخلائق والطبيعة والطبائع، وطاف ببلاد كثيرة ولم يبلغ

الصين و« سرنديب » ولم يزر « الأندلس ».

ثم سرنا إلى مدينة « يزنيك »، وبعد مسيرة يوم كامل في النهر وصلنا إلى مدينة ممتنعة على الغريب إلا بأمر الحاكمة. كان النهر الذي تحفّه أشجار الرمان الحلو والحامض يصب في بحيرة ماء، ينبت فيها القصب ولا يستطاع دخول المدينة إلا بمد جسر واحد خشبي لا يتسع إلا لفارس واحد، ويوضع الجسر ويرفع حسب موافقة الحاكمة، وهي زوجة السلطان وهي امرأة فاضلة وصالحة، وهكذا فإن المدينة محاطة بالبحيرة من كافة الجهات فضلاً عن أسوار أربعة، بين كل سورين خندق ماء، وقد أقمت بهذه المدينة أربعين يومًا إعجابًا بالإقامة وانتظارًا لشفاء فرس لي أحببته ورأيت ألاّ أتخلى عنه.

ولما أردنا السفر إلى المدينة القريبة تقدمتنا امرأة من الترك، ومعها خادمها ونحن جمع كبير يتبعها، ولما وصلت إلى وادٍ يقال له سَقَرى، كأنه نسب إلى سقر أعاذنا الله، مضت تجتاز الوادي، فلما توسطته أوقعها الفرس وكادت تغرق في الماء وأنقذها الرجال، أما الخادم فلقي وجه ربه، وأخبرنا الناس أن ثمة معدية يمكن أن نعبر عليها النهر، فتوجهنا إليها وهي أربع خشبات مربوطة بالحبال، تحمل الركاب ويجذبها رجال من الجانب الآخر.

ووصلنا إلى « صنوب » وهي ميناء تركي على البحر الأسود، وتعرفنا هناك بغازي الحلبي الذي وهبه الله الصبر تحت الماء، وكان ممن

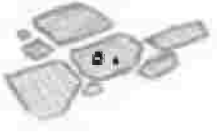

يشاركون في حرب الروم، فإذا كان القتال وانشغل الناس بالنزال والمبارزة غاص تحت الماء، وبيده آلة حديد يخرق بها سفن العدو، فلا يشعرون بما يحدث ويفاجئون بالغرق، وكان إلى جانب ذلك صائداً ماهراً للغزلان.

وقد حدث أن رآنا أهلها ونحن نصلي مسبلي الأيدي، ومذهبهم حنفي ولا يعرفون المذهب المالكي وصلاتنا على طريقته فلا نضع أيدينا على البطون، وحسب الناس أننا من الرافضة؛ لأنهم يصلون كذلك وهم يكرهونهم فاتهمونا بذلك، وأصبحوا يتجنبون خدمتنا، فنحن في نظرهم عصاة، حتى تنبه نائب السلطان إلى ذلك فقرر أن ينهى الأزمة فبعث إلينا بأرانب وأوصى خادمه أن يلازمنا حتى يرى ما نفعل، فذبحناها وطبخناها وأكلنا وكانت لذيذة، وأعلمه الخادم بذلك، فحينئذٍ زالت التهمة، وأقبل الجميع علينا بالضيافة والهدايا؛ لأن الرافضة لا يأكلون الأرانب.

وبعد أربعة أيام تُوفِّيَتْ أم الأمير فخرجت في جنازتها وخرج ابنها سائراً على قدميه كاشفًا شعره وملابسه مقلوبة وكذلك الأمراء والممالك. أما القاضي والفقهاء فقد لفوا مناديل سوداء على رءوسهم، وظل الأمير يطعم الطعام أربعين يومًا.

ثم تأهبنا للسفر واستأجرنا مركبًا، ولكننا انتظرنا أحد عشر يومًا حتى تهدأ الريح، ولما هدأت ركبنا البحر، وبعد ثلاثة أيام هاج علينا

ورأينا الهلاك عدة أيام، حتى ردتنا الريح إلى «صنوب» من حيث خرجنا فحمدنا الله.

وبعد أيام هدأت الرياح وصفا الجو وسالت الأمواج ناعمة، فركبنا المركب وانطلقنا متفائلين، وبعد أيام وقد توسطنا البحر هاج وأوشكنا على الغرق فصبرنا وقاومنا يومًا وليلة، حتى جاء الفرج فاستكملنا الرحلة ووصلنا مرسى يسمى «الكرش»، فأردنا دخوله فأشار إلينا أناس بالجبل ألا ندخل، ولكنني طلبت النزول ورأيت كنيسة فقصدتها، ورأيت على أحد حيطانها صورة لفارس عربي وبيده رمح. سألت الراهب عنه فقال: إنه «علي» رضي الله عنه. فاعجبت من قوله ودعوت رفاقي فبتنا بالكنيسة. وطبخنا دجاجة، لكننا لم نستطع أكلها لأنها بقيت في المركب طويلاً وغلبت عليها رائحة البحر.

وسرنا في صحراء تلك المنطقة وهي واسعة قاحلة لا حطب فيها، وأهلها يجففون روث البهائم ويشعلونه، وتجد كبراءهم ينحنون على الأرض ويحملون الروث في ملابسهم، ولا يسافر أحد منهم إلا على العجل وهي عربات تجرها الخيول.

استأجرنا عجلة وسافرنا إلى مدينة القرم ومنها إلى «السُّرا» واشتريت منها العجلات؛ لأني لابد سأحتاج إليها، ويسمونها عربة، والعربة تتكون من أربع بكرات كبار ومنها ما يجره فرسان ومنها ما

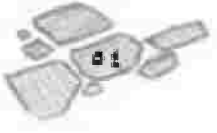

يجره أكثر من ذلك، وتجرها أيضًا الجمال والبقر، والذى يخدم العربة يركب الفرس التى تجرها ويكون عليه سرج، وفى يده سوط يحركها للمشى وعدد كبير ليضربها إذا مالت أو انحرفت، ويجعل على العربة شبه قبة من أعواد الخشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق، وهى خفيفة الحمل وتكسى بالليف وفيها شبه النوافذ، ويرى من بداخلها الناس ولا يرونه ويتقلب فيها كما يحب، وينام ويأكل ويقرأ، أما التى تحمل الأثقال والمؤن فيكون عليها ما يشبه البيت وعلى بابه قفل.

ولما أردت السفر جهزت عربة لركوبى، وعربة صغيرة لرفيقى، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب تجرها ثلاثة من الجمال، وقد لاحظت أن الخيل والإبل والبقر إذا خلت من العربات تركوها ترعى كما تشاء ولم يحبسوها، ولا رعاة لها ولا حراس، وذلك لشدة أحكامهم فى السرقة، وحكمهم فيها أنه من وجد عنده فرس مسروق أمروه أن يرده إلى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله، فإن لم يقدر أخذ أولاده مقابل الفرس، فإذا لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة، والإبل والخيل تدمغ على أفخاذها بخاتم أصحابها حتى تعرف.

* * *

إلى بلاد الظلمة وخوارزم

وكنت سمعت بمدينة البلغار فأردت التوجه إليها؛ لأرى ما ذكر عن قصر الليل بها وقصر النهار أيضًا، وساعدني سلطان البلاد كي أصل إليها مع الدليل والرفاق، فأقمت بها ثلاثة أيام وكنا في رمضان.

وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة، ويكون الدخول إليها من بلغار وهي في أقصى الشمال وبينهما أربعون يومًا، ثم أضربت عن ذلك؛ لكثرة التكاليف المطلوبة للرحلة وعدم جدواها، إذ لا أتوقع أن أجد شيئًا ذا أهمية لا من البشر أو العالم أو الأثر أو العادات، وإنما هي متاعب ثقيلة ومشقة بلا نفع، كما أن السفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغيرة تجرها الكلاب الكبيرة، والمعروف أنها جليد في جليد لا تثبت قدم الإنسان عليه، والدواب لا تستطيع ذلك، لكن الكلاب لها أظفار تنشبها في الجليد، ولا تتاح الفرصة إلا للأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة تحمل له كل ما يلزم له ولرفاقه شهرين على الأقل، فلا شجر فيها ولا حجر، والدليل هناك هو الكلب وقيمته تبلغ ألف دينار.

ولذلك عدنا إلى بلاد الأوزبك في معية رجال السلطان فبقينا أيامًا، ثم رحلنا إلى مدينة «الحاج ترخان» وهي مدينة كبيرة على نهر إتل (الفولجا) عامرة الأسواق، إذا اشتد البرد يجمد النهر وتجمد المياه، وإذا كان السلطان موجودًا يأمر أهلها فيأتون بالآلاف من أحمال التبن،

فيجعلونها على الجليد المتجمد فوق النهر، والتبن لا تأكله الدواب؛ لأنه يضرها، وتكتفي بالحشيش الأخضر لأنه متوفر لخصوبة البلاد، وتجرى الدواب على التبن فلا تنزلق العجلات أو الخيول. وهكذا انطلقنا صوب مدينة «القسطنطينية» (استانبول).

وهي مدينة كبيرة وبها أكبر كنيسة رأيتها هي «أياصوفيا»، تعلوها قباب رائعة وحولها سور ضخم وأقمنا عدة أيام ثم اشتد البرد فمضينا إلى «خوارزم» بالعربات، وكنت ألبس ثلاث فرات وسروالين أحدهما مبطن، وفي رجلي خف من صوف وفوقه خف مبطن بالكتان وفوقه جورب من جلد فرس مبطن بجلد ذئب، وكنت أتوضأ بالماء الساخن بمقربة من النار، فإذا سقطت قطرة مني تجمدت فوراً، وكانت لحيتي إذا بلغها الماء تتجمد، فإذا حركتها سقط من شعرها الثلج، والماء الذي ينزل من الأنف يتجمد على الشارب، وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما عليّ من ثياب حتى يُركّبني أصحابي. وسافرنا بالعربات فوق النهر المتجمد، وكنا إذا احتجنا إلى الماء قطعنا قطعاً من الجليد، وجعلناه في القدرة، حتى يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به.

ووصلنا إلى مدينة «السرا»، وهي كبيرة جداً عامرة الأسواق، وكنت قد عزمت السفر إلى «خوارزم»، لكن حاكمها أصر على بقائي وأكرمني، وهكذا كان يفعل كل من يستقبلني من الحكام، وكان من عادتي ألا

ادخل بلداً إلاّ بعد أن أطلب لقاء السلطان أو الملك أو الأمير أو رأس الحكم فيها أولاً؛ لأن هذا من أسس اللياقة، وكما علمنا الإسلام عن ضرورة الاستئذان من رب البيت، وثانيًا لأني أرغب أن أجد على يديه التيسير سواء في الإقامة أو التعرف على المعالم أو في لقاء الفقهاء والعلماء، وهي طريقة أظنها ناجحة، أنقذتني من مواقف كثيرة بالغة الحرج والضيق، وأعلم أن البعض قد لا يميل إليها، لكن تجربتي تؤكد جدواها، ولم أكن يومًا - مهما شقيت- منافقًا، أو من هواة المديح عن غير حق.

تطلب سفرنا إلى «خوارزم» مسيرة أربعين يومًا في صحراء بلا كلأ، لذلك لم نستخدم الخيل التي نحتاج إليها، وركبنا عربات تجرها الجمال الصابرة، وقررنا السير بجد حتى تقل المدة عن أربعين يومًا، وأمكننا تخفيضها إلى ثلاثين، لكننا لم نكن نرتاح إلا ساعتين، ساعة عند الضحى وساعة عند الغروب، ويكون ذلك لا بغرض الراحة والاسترخاء، ولكن لكي نطبخ ونأكل ونشرب، وسرعان ما نركب. وكنا نطبخ الشعير واللحم وفوقهما اللبن ونحملهما على عجل؛ لنأكل ونحن في العربة، كما كنا ننام فيها ولم نكن نحصل على المياه إلا كل ثلاثة أيام من آبار يعرفها الدليل وليست كثيرة، وتكون حيث تتجمع مياه المطر.

ومضينا بعد «خوارزم» إلى «نيسابور» و«بسطام» وكل مدن الفرس، ولقينا الشيوخ والسلاطين والعلماء ورأينا العمران والخير، كما رأينا العجائب والعادات الغريبة، وانتقلنا إلى بلاد الأفغان ودخلنا «كابُل» و«كرماش» ومنها إلى بلاد السند، وكان وصولنا إلى «البنجاب» أوائل عام ٧٣٤ هـ.

* * *

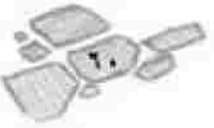

في بلاد الهند

«البنجاب»، تعني المياه الخمسة، وهي إحدى مناطق الهند الشاسعة، وقد لاحظت أن وادي السند يشبه وادي النيل في ضخامته وفيضانه، وقد لفت نظري شأن البريد هناك فهو صنفان، بريد الخيل ويكون كل أربعة أميال، وبريد الرجالة وينقله شخص لمسافة ميل واحد، ويكون ذلك بأن يقعد رجال في كل قرية معمورة مستعدين للحركة قد شدوا أوساطهم، فإذا خرج البريد من المدينة السابقة، أخذ الرجل الكتاب وبيده مقرعة ذات جلاجل ويركض بأقصى سرعة إلى القرية التالية وقبلها بنحو نصف ميل يضرب الجلاجل، فيستعد من بالقرية لأخذ الكتاب ونقله إلى القرى التالية.

وسرنا إلى بلاد «الملتان» وهي أكبر مدن السند، وكان لابد من ركوب المراكب والرسو في ميناتها، الذي لا يسمح للدخول منه إلا بعد التفتيش الدقيق للأمتعة، وكنت لا أحمل أمتعة كثيرة، لكني أكره أن يفتشني فيها أحد، ولكنهم لم يعبأوا وبدأوا بتفتيش كل من كان في رفقتي، وقبل أن يمسوا شيئًا من حاجياتي وصل جنود من طرف السلطان يمنعهم من فتح أمتعتي أو تفتيشها، فقد حمل إليه أحد الفقهاء خبر وصولي.

وكان السلطان يأخذ الربع من كل ما يدخل البلاد، وبعد عامين من وصولنا أصبح يحصل على الزكاة والعشر فقط استجابة لدعوة

الخليفة العباسي، الذى أبلغته بما يجرى وطلبت إليه أن يتدخل، فالربع كثير والطريق طويلة وشاقة، وذهبت للقاء السلطان وشكرته، وأهديت له مملوكًا وفرسًا وشيئًا من الزبيب واللوز، وهو من أعظم ما يهدى إليهم؛ لأنه لا ينمو ببلادهم، وكان يجلس على مصطبة كبيرة مفروشة بالسجاد ودعانى للجلوس إلى جواره، والأمراء من حوله والقاضى والخطيب، وبين يديه العسكر، وهناك رماح وقسى كثيرة، فإذا كان هناك من يريد أن يلتحق بالعسكر راميًا، أعطوه قوسًا وأطلق، وبقدر حسن الإصابة يكون مرتبه، ومن أراد أن يلتحق فارسًا، فعليه أن يحمل الرمح ويركض بفرسه فيصيب طبلة صغيرة منصوبة عن بعد، وهناك أيضًا حلقة معلقة على حائط، فعليه أن يجرى ويلتقط الحلقة برمحه فإن فعل تحدد مرتبه وألحق بالعسكر، وأقمنا بالملتان فى أمان شهرًا ثم سرنا إلى «دهلى».. وبعد وصولنا إلى مدينة «دهلى» ولقاء السلطان توفيت ابنتى، وأقام لها السلطان عزاء كبيرًا رغم أنها لم تبلغ عامًا كاملاً، ودعا الفقهاء لقراءة القرآن، وفرش الموائد، وأمر بصب ماء الورد على كل الحضور، وبعدها بأيام تزوجت من أخت السلطان وهى سيدة فاضلة، وخصص لى السلطان راتبًا شهريًا، بالإضافة إلى وقف يدرُّ عليَّ خمسة آلاف دينار فى السنة، وطلب إلىّ أن أتولى القضاء والفتوى فقبلت.

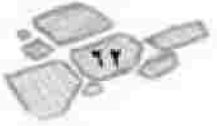

لم يكن السلطان بحاجة إلى قضائي فقد كان عادلاً وصالحًا، يحرص على رد المظالم وإنصاف المظلومين، حتى إنه أمر أن يلبس كل مظلوم ثوبًا مصبوغًا، وأهل الهند جميعًا يلبسون البياض، فإذا رأى أحد من رجاله شخصاً يرتدي الثوب المختلف حملوه إلى السلطان ليقدم شكواه، وذلك حتى لا يُخفي أحد مظلمته، والغريب أنه لم يكتف بذلك، بل قال: إن هناك من يتعرض للظلم بالليل فهل ينتظر حتى تطلع الشمس، وأريد تعجيل إنصافه، وقد يكون هناك من لا يستطيع صبغ ثيابه، فجعل على باب قصره أسدين منحوتين من الرخام في أعناقهما سلسلتان من الحديد متصلان بجرس كبير فمن لديه مظلمة فليس عليه إلا أن يحرك الجرس فيسمعه السلطان وينظر في أمره فورًا، وكنت أعجب لذلك، وأتمنى أن يعمل كل السلاطين مثله، عندئذ ينتهي الظلم من الأرض ويعم الأمان.

وبعد شهور قررت الاعتكاف في بيتي والتخلي عن الحركة ولقاء الناس، ورأيت أيضًا ترك القضاء والدنيا، والتفرغ للعبادة والصلاة، ولم أعد أقبل على الطعام، فكنت أصوم بالعشرة أيام إلا عن بعض الماء، حتى علم السلطان بذلك فسعى إليّ ورجاني أن أعود فأبيت، وتركني أربعين يومًا ثم دعاني للعودة إلى الدنيا فطلبت أن أحج، فسمح لي وأكرمني بتجهيز الخيل المسرجة والخدم والجواري والغلمان والثياب الكثيرة والنفقة، وحججت وحمدت الله على هذا الكرم.

وكنت قد بقيت بدهلي قلب بلاد الهند سنوات أعلم وأفتي وأقضي، عشت تلك السنين في رغد وهناء، محفوفًا بالتكريم والتقدير ومتأملاً أحوال العباد، إلى أن طلب إلى السلطان أن أكون رسوله إلى ملك الصين على رأس وفد كبير فقبلت، وكان ملك الصين قد بعث إلى سلطان الهند مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوب، وخمسة أطنان من المسك وخمسة أثواب مرصعة بالجواهر، وخمسة سيوف.

وأعدت الهدايا التي سيحملها الوفد إلى ملك الصين وهي أضعاف ما أرسله ملك الصين، وخرجنا في ألف فارس حتى الموضع الذي سنركب منه البحر، وكان الوفد مكونًا مني وخمسة عشر رجلاً مشهورين بالعلم واللياقة وإتقان اللغات، وخدامهم نحو مائة رجل يحملون اللوازم لرحلة تطول نحو شهرين، وكنا في نحو عام ٧٤٣ هـ.

* * *

وقوعي في الأسر

تحركنا جنوبًا إلى «بيانة» ثم اتجهنا شرقًا إلى «كول»، وقصدنا «الجلالي»، وهناك عدد كبير من المسلمين، فوجدنا أعداءهم يقاتلونهم، وقد أوشكوا أن يهزموا فاندفعنا لنصرتهم، وكان الأعداء في ألف فارس وثلاثة آلاف راجل، والمسلمون جميعهم لا يزيدون على خمسمائة، فأعاننا الله على قتالهم حتى قضينا عليهم تمامًا، وسلبنا خيولهم وأسلحتهم، ومات منا ثلاثة وعشرون، ومن أهل البلاد المسلمين نحو مائة.

ثم هاجمنا آخرون فجأة ونحن في عزلة وراحة، فتمزق شملنا، واختبأت في أحد الخنادق، وسرق فرسي وما كان معي من ذهب، ولم أعثر لرجالي على أثر، وبقيت في الخندق حائرًا لا أستطيع التصرف، إلى أن أحاط بي أربعون من الكفار، وفكرت في الفرار، لكنهم وجهوا إليَّ الرماح فخفت الموت، وأنا غير مسلح، فاستسلمت وأخذوني وسلبوني كل ما كان معي، وبقيت في الأسر عدة أيام، وأخيرًا تحدثت إلى حارسي في السر عن وهن صحتي ورغبتي في إطلاق سراحي، فخلع عني جبتي وقال لي: اذهب.

وخفت أن يدركني الكفار، فاختفيت في حقل قصب حتى غابت الشمس وسرت حتى منتصف الليل، إلى أن وصلت إلى جبل فنمت تحته وفي الصباح أخذت أسير بلا توقف وأنا جائع ومنهك،

حتى وجدت شجر التين فمضيت آكل منه وهو أكبر بكثير مما في بلادنا، ثم سرت من جديد حتى وصلت قرية فدخلت مزرعة قطن، وأقمت بها بقية نهاري، ثم أدركت أنها قرية للكفار فأسرعت بتركها، وسرت حتى وصلت إلى قرية أخرى فدخلتها، ووجدت بها داراً خربة تسللت إليها، ومنها إلى دار أخرى بها تين، دفست فيه رأسي ونمت، وأقمت في هذا المكان سبعة أيام، ثم قمت فسرت إلى قرية أخرى وكان بها الكفار فأخذ أحدهم قميصي، ثم سرت من جديد وأنا أعاني العطش حتى وصلت إلى حوض به ماء قليل في القاع. ربطت خرقة كانت على رأسي بحبل وأنزلتها ثم سحبتها ومضيت أمتص ما فيها، فلم تسعفني فربطت خفي بالحبل وأنزلته فسقط، فربطت الثاني جيداً وأنزلته وبعد أن امتلأ سحبته، وعندما وصلني كان فارغاً، فقد اكتشفت أن به ثقوباً، فكدت أبكي، وقلت: يارب.

عندئذ ظهر شخص نائه معه إبريق أدلاه في البئر وشربنا، ثم أخرج جرابه وفتحه وقدم لي ما معه من طعام.. فأكلت حتى تفككت أعضائي، وعلمت أنه مسلم ضل طريقه، لكنه قال:

- إننا هنا في خطر، فهيا بنا.

قلت له: لا أستطيع النهوض ولا أدري ما بي.

فقال: ساحملك.

وعلى الفور نهض وانحنى عليّ، فقلت له: لن تحملني.. دعني واذهب، فأكد أن المكان مهدد وخطر، وطلب مني أن أركب على ظهره وأتعلق بعنقه، ولا أكف عن قول: حسبنا الله ونعم الوكيل، ومضيت أردد ذلك القول حتى غلب عليّ النوم، ثم أفقت فإذا الشمس تقترب من الغروب، وأنا على الأرض ولا أثر للرجل، وأمام عيني قرية عامرة، دخلتها وكان حاكمها من المسلمين، دعاني ورحب بي وأكرمني، وتذكرت الشيخ الذي لقيته قبل عشر سنين تقريبًا وقال لي ستدخل الهند وتلتقي أخي «دلشاد»، وكنت قد سألت الرجل الذي حملني عن اسمه فقال: القلب الفرحان ومعناها بالفارسية «دلشاد» وكم حدث لي مثل ذلك مرات لا تحصى وسبحان الذي خلقنا وهو أقرب إلينا من حبل الوريد.

من هذه القرية رحلنا إلى برج «بدرة» و«كاليور» و«ظهار» و«أجين» ثم دولة «آباد»، وبعد أربعين يومًا إلى «الحضرة»، ثم إلى «أبوهر» في صحراء حولها جبال منيعة يسكنها الهنود من غير المسلمين، قطعوا علينا الطريق ورمونا بالرماح وكانوا نحو مائة رجل، لكننا قاتلناهم ورأيت الرفاق قد تمكنوا من ردهم بعد أن أصيب بعضنا، وكنت ممن أصيب، كما أصيبت بعض الخيول، فذبحناها وأكلها الترك، وأخذ الرجال رءوس اللصوص المعتدين وعلقوها على سور أول حصن مررنا به، وهو للمسلمين.

سافرنا من الحصن بعد يومين إلى مدينة «أجودهن»، وهي مدينة صغيرة يعيش أهلها في كرم وأنوار شيخها الصالح «فريد الدين البذاوني» الذي أخبرني الشيخ الصالح «برهان الدين الأعرج» بالإسكندرية أني سألقاه في الهند، فلقيته والحمد لله.

وهذا الشيخ مبتلى بالوسواس والعياذ بالله، فلا يصافح أحداً ولا يدنو من أحد، وإذا حدث ولمس ثوبه أحد غسله في الحال.. مضيت إليه وأبلغته سلام الشيخ ففرح وتعجب، ولقيت ولديه الفاضلين «معز الدين» و«علم الدين»، وسرتني الزيارة جداً وملأت نفسي بالصفاء والرضا.

ولما انصرفت عن الشيخ رأيت الناس يركضون ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم عن الخبر، فقالوا: كافر من الهنود مات، وأججوا النار لحرقه، وامرأته أحرقت نفسها معه. فقد عانقته وظلت كذلك حتى تفحمت مثله.

بعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من الهندوس متزينة وراكبة، والجمع الكبير يتبعها والطبول تدق والأبواق تهتف ومعها البراهمة وهم كبار الهنود، ويكونون قد استأذنوا السلطان في إحراقها، فإذا وافق، أُشْعِلَتْ حولها النارُ، وكان السلطان هو «خسروخان».

وفي بلاد أخرى من الهند ليس إحراق المرأة واجبًا، فإذا رغبت أعانوها على ذلك، وإذا أبت فلا تجبر، لكن من تحرق نفسها أحرز

أهلها الشرف الكبير ونسبوا إليها الوفاء، ومن لم تحرق نفسها ليست خشن الثياب، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها.

وفي أحد الأيام نشب قتال شديد بين بعض المسلمين وبعض الهندوس، ومات ثلاثة من الهنود من غير المسلمين، فرأت زوجاتهم حرق أنفسهن معهم.

وبدأت النسوة أولاً بتنظيم حفل كبير لمدة ثلاثة أيام في غناء وطرب وطعام وشراب كأنهن يودعن الدنيا، وأتى إليهن النساء من كل جهة للمشاركة، وفي اليوم الرابع، ركبت كل واحدة فرساً وهي في أبهى زينة والعطر يفوح منها، وفي يمينها ثمرة جوز الهند تلعب بها، وفي يسارها مرآة تنظر فيها إلى وجهها والبراهمة يحفون بها، وإلى جوارها أقاربها وأمامها الأبواق والطبول، ويصيح بها الهنود قائلين:

أبلغي السلام إلى أبي وأمي وأخي

أبلغي السلام إلى صاحبي فلان

وهي تبتسم في سعادة وتقول: نعم

وركبت مع أصحابي لأرى كيف يكون الحرق، فتبعنا المركب نحو ثلاثة أميال، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال، وبين أشجاره أربع قباب، في كل قبة صنم من الحجارة وبين القباب صهريج ماء وهو خزان كبير أو إناء هائل الحجم.

ولما وصلت النساء إلى الصهريج نزلن فيه وغطسن وخلعت كل واحدة ما عليها من ثياب وحلي فتصدقن به، وجاءوا إليهن بثياب قطنية خشنة وغير مخيطة، تشبه إلى حد كبير ملابس الإحرام، وكانت النار قد أضرمت في موضع منخفض قريب من الصهريج وصب عليه زيت يؤجج النار ويزيد اشتعالها، وحول النار خمسة عشر رجلاً يحملون حزم الحطب، وعشرة يحملون ألواح الخشب، وكانت هناك مجموعة من الرجال تحمل ستائر لتخفي النار عن النساء ويقفون بين النار والصهريج، حتى تخرج النساء إلى النار فجأة.

ورأيت المرأة الأولى هجمت على الرجال ونزعت الستارة وألقتها بعيداً وهي تقول:

أتخوفونني بالنار ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة.

ثم ألقت بنفسها فيها، وتبعتها المرأتان وتعالت أصوات الأبواق والطبول، ورمى الرجال ما بأيديهم من حطب عليهن، ووضع الآخرون ألواح الخشب فوقهن حتى لا يتحركن وعلا الضجيج والصخب، وكدت أسقط مغشيًّا عليَّ من فوق فرسي، لولا أن أصحابي التفتوا إلى حالي وأدركوني بالماء وأعانوني على التماسك بعد أن غسلوا وجهي، وابتعدت خطوات عن المشهد إلا أنني بقيت حتى انتهى الحرق، ودفع الرجال الرماد المتبقي على عربة صغيرة وألقوا به في نهر الجانج.

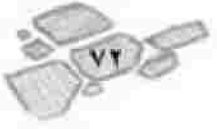

وهناك من الهنود الهندوس من يلقى بنفسه في نهر الجانج منتحراً، وقبل أن يلقى بنفسه يقول في الجمع الحاضرين:

لا تظنون أنى أغرق نفسى لأجل أى شيء من أمور الدنيا أو لقلة المال، إنما قصدى التقرب إلى كساى.. وهو اسم معبودهم، ثم يغرق نفسه، فإذا مات أخرجوه وأحرقوه، ورموا برماده في نهر الجانج.

ولما أصبح «خسروخان» ملكًا على الهند، أظهر أموراً منكرة، منها النهى عن ذبح البقرة حسب عقيدة الهندوس، فإنهم لا يجيزون ذبحها، وجزاء من يذبحها عندهم أن يخاط في جلدها ويحرق، وهم يعظمون البقر ويشربون بولها للبركة والاستشفاء إذا مرضوا، ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بروثها، وكان ذلك مما أدى إلى بغض المسلمين لخسرو وميلهم إلى غيره، وعلى كل حال لم تطل مدة ولايته، وظللت حتى الآن في دهشة وتعجب من تلك الأفعال، ورأيت أن أتجهز للرحيل عن هذه البلاد التي تمرق على أرضها الشاسعة وقد السلطان وهداياه، وقد أعلمته بذلك فبعث إلىّ يهنئنى بالسلامة؛ فرفع عن صدرى الكثيرُ من الألم.

* * *

فى بلاد المُليبَار

هى البلاد المطلة على ساحل الهند الشرقى، وهى بلاد الفلفل الأولى، ومنها يصدر إلى جميع البلاد، وطولها مسيرة شهرين من «سندابور» شمالاً إلى «كولم» جنوبًا، والطريق بين كل المدن والقرى مظلل بالأشجار، وكل نصف ميل يوجد بيت من خشب وبشر، والخيول فيها للسلطان فقط، أما الشعب فأغلبه يتنقل محمولاً على رقاب العبيد أو المستأجرين، أو مشاة على الأقدام، وتتميز البلاد بالأمانة الشديدة؛ لأن سارق جوزة الهند الواحدة قد يقتل عقابًا على ذلك.

وشجرات الفلفل شبيهة بتكعيبات العنب، وهى نباتات متسلقة يزرعونها إلى جوار النخيل فتصعد عليه، وورق الشجر كآذان الخيل وتثمر الشجرة عناقيد صغيرة كعناقيد العنب إلا أن حبها صغير، ويقطفونه فى الخريف ويفرشونه على الحصر فى الشمس، والحبة أكبر من حبة القمح قليلاً ولكنها مستديرة، ويتركونه حتى يجف، كما يتركون العنب ليصير زبيبًا، ويكون فى البداية أخضر، ويستمر تقليبهم له حتى يجف ويسْوَدّ.

وقد مررنا بمدن «أبى سرور» و«فاكنور» و«هيلى» و«بدفتين» و«فَنْدَرينا» و«الشاليات» إلى أن وصلنا إلى «قالقوط»، وبها ميناء كبير ترسو به كل السفن القادمة من الشرق أو من الغرب، ويجتمع

فيها التجار من الصين والهند وسيلان وجزائر ذيبة المهل واليمن وجاوة وغيرها.

ونزلنا بالمدينة أيامًا ثم تعذر سفرنا، فأقمنا ننتظر السفر إلى الصين ثلاثة أشهر، ومراكب الصين ثلاثة أصناف، الكبار منها تسمى الجنوك وبها اثنا عشر قلعًا، وهو من عيدان الخيزران منسوجة كالحصر لا يجمعونها أبدًا وتظل مبسوطة وتدور حسب دوران الريح، ويخدم في المركب نحو ألف رجل، البحرية ستمائة وأربعمائة من المحاربين، من بينهم الرماة بالنبال والأقواس والرماة بالنفط، وهم يصنعون السفن بطريقة لم أر مثلها بأن يبنوا حائطين من الخشب، يصلون بينهما بأخشاب ضخمة موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخمة، طول المسمار نحو المترين، وبعد ذلك يفرشون أعلاها السطح الأدنى للمركب أو قاعها، ودفعوا ذلك إلى البحر وثبتوه، وهناك أكملوا السفينة، والحائطان الخشبيان يحملانها، ثم يصنعون المجاديف وهي كبيرة يجتمع عليها خمسة عشر رجلاً أو أقل قليلاً، ويجدفون وهم وقوف.

وسافرنا إلى جزائر «ذيبة المهل»، وبقينا في البحر عشرة أيام، وهي نحو ألفي جزيرة، كل مائة منها مجتمعة في حلقة مستديرة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه، وإذا وصل المركب إلى إحداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر، وكلها قريبة جدًا من بعضها، ويرى أهل كل جزيرة رءوس النخيل في الجزر الأخرى، وأهلها

كلهم مسلمون وأشجار جزر الهند بها كثيرة، تثمر في كل شهر سباطة كبيرة من الجوز، يصنعون منه اللبن والزيت والعسل، وبنيانهم من الخشب وبيوتهم مرتفعة؛ لأن الأرض رطبة، وجميعهم حفاة، العالي منهم والفقير، ولا يدخل الفرد بيته إلا بعد أن يغسل قدميه أمام الباب ويحكهما بالليف، ويرحبون بالغرباء ويزوجونهم بناتهم، وإذا أراد أن يسافر لا يسمحون لابنتهم أن تسافر معه فيطلقها.

وأعجبتني الحياة في جزائر المهل (المالديف) وقررت العيش بها خاصة أن سلطانها أكرمني وأهداني كثيرًا، وبعد عام طلب مني أن أتزوج ابنته، وكان زوجاها السابقان قد ماتا فخشيت أن ألحق بهما.. وأصابتني الحمى، والغرباء القادمون إلى هذه البلاد لابد أن تصيبهم الحمى يومًا، وأخذت أتهرب منه وأماطله، حتى عزمت على السفر، وعلم السلطان فبعث إليَّ طالبًا كل ما تسلمته من الهدايا والمال والجواري إذا أردت السفر، فأسقط في يدي؛ لأني أنفقت المال كله وبعض الهدايا ولا أستطيع رد الجواري، ومع ذلك أرسلت إليه بأني سأرد كل شيء، وبلغ ذلك ابنته، فأرسلت إلى أبيها تقول: لا أريد الزواج بهذا الرجل.

وكنت أدعو الله أن يصرف عني هذا الأمر، وفوجئت بالسلطان يقول لي:

– إذن أقم معنا وتزوج حمائي، وكنت قد رأيتها، وهي جميلة فقبلت وتركني أسافر.. وكانت معي، ولما بلغنا إحدى الجزر مرضتْ مرضاً شديداً وطلبتْ الرجوع فطلقتها ورددتها، وبعثت معها جارية كنت أحبها لترعاها؛ لأنها أحبتها جداً وتمسكت بها، وتابعنا السفر، ووصلت إلى جزيرة ليس بها غير دار واحدة فيها رجل خياط، له زوجة وأولاد وبضعة أشجار جوز الهند والموز، وقارب صغير يصطاد فيه السمك ويمضي إلى حيث أراد، ولم نر فيها من الطيور غير غرابين خرجا إلينا لما وصلنا الجزيرة، فدهشت لحال الرجل وتمنيت لو كانت تلك الجزيرة لي، أنقطع فيها متعبداً ومتأملاً حتى نهاية العمر.

* * *

جزيرة سيلان

وصلنا بعد تسعة أيام إلى جزيرة « سيلان »، وبها جبل « سرنديب » الذى رأيناه ذاهيًا فى السماء كأنه عمود دخان، ولما وصلنا قال البحرية: هذا المرسى ليس مرسى التجار الآمنين، إنما مرسى لسلطان اللصوص وهو من المفسدين، وله مراكب تقطع الطريق على التجار فى البحر، فخفنا أن ننزل واشتدت الريح فخفنا الغرق، فقلت لرئيس البحارة: أنزلنى هنا وأنا آخذ لك الأمان من هذا السلطان. فأنزلنى، وسألنى الحرس وهم من غير المسلمين، فقلت لهم: أنا صديق السلطان وجئت لزيارته وأحمل له الهدايا فى المركب، فذهبوا إلى السلطان وأخبروه فاستدعانى، وكانت أرضه كثيرة جدًا مملوءة بأعواد القرفة.

فلما سألنى السلطان عن شخصيتى، قلت له: إنى صديق سلطان « المعبر »، أى حاكم المنطقة الضيقة بين « سيلان » و« الهند » وهو سلطان قوى يهابه الجميع ويتحكم تمامًا فى هذه المنطقة، ولابد على الجميع من إرضائه. فرحب بى السلطان وأكرمنى وأكرم رفاقى، وأقمت لديه ثلاثة أيام وبعدها دخلت عليه، وكانت أمامه طشوت اللؤلؤ، ورجاله يفحصونها، فسألنى: هل رأيت مثلها؟ فقلت: رأيت كثيرًا، ولكنه أقل منها، فتهللت أساريره، وقال: خذ منها ما تشاء، فرفضت شاكرًا، وأعاد عرضه، فقلت له: أريد شيئًا آخر، فسألنى عنه، قلت: أود زيارة قدم آدم أبى البشر. فوافق وأرسل معى أربعة من

الرجال الذين يزورون القدم كل عام، وسافرنا في مناطق كثيرة أغلبها تمتلئ أرضها بالمياه، وبها الفيلة الكثيرة التي لا تؤذي أحداً، وكانت الفيلة كما قيل من قبل تقتل الغرباء، لكنها توقفت عن ذلك منذ تحدث إليها الشيخ عبد الله الخفيف، وهو أول من فتح الطريق لزيارة قدم آدم. ورأيت في طريقي فيلاً أبيض وكانت دهشتي عظيمة إذ لم أر سواه، والجزيرة ممتلئة بالياقوت، وقد لاحظت أن أي إنسان يشتري قطعة أرض ويحفر فيها فيجد أحجاراً مشعبة فيعطيها للحكاكين فيحكونها حتى تنغلق من الياقوت، ومنه الأحمر والأصفر والأزرق، وقد رأيت على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار كبيرة من الياقوت أكبر من بيضة الدجاجة.

ووصلنا إلى «كنكار»، فنزلنا بمغارة تعرف باسم «أسطى محمود اللوري» وكان من الصالحين، وكان قد احتفرها الرجل لنفسه بالجبل واعتكف فيها، ووصلنا إلى خور القرود، والقرود بهذه الجبال كثيرة، وهي سود الألوان ولها ذيول طويلة، وللذكور لحى كما للآدميين، ولهذه القرود زعيم يتقدمها ويربط رأسه بعصابة من ورق الشجر ويتوكأ على عصا ويكون على يمينه اثنان، وعلى يساره اثنان يحملون العصي.

ومضينا إلى أن وصلنا إلى طريق بابا.. أي طريق آدم؛ لأنه الأب الأول. ومن الطريق نصعد جبلاً عالياً، ثم مر فيه بمغارة الخضر، ثم

واصلنا الصعود لنحو ميلين. حتى بلغنا الصخرة التى عليها قدم «آدم»، وهى محفورة بعمق فى الصخرة السوداء وحد لها حفر يترك فيها البعض النقود من ذهب وفضة ،ويأتى الفقراء ليأخذوها ومن الناس من يقيم فى مغارة الخضر ثلاثة أيام ليصعد كل يوم إلى قدم «آدم».

ولم أمنع نفسى من السؤال: هل أهبط آدم هنا؟ وما الذى يؤكد أن هذه الحفرة هى قدمه؟ ولم أجد الإجابة لدىَّ ولا لدى غيرى، ولم أشكك فى صحتها، فلعلها بالفعل قدمه، لكننى أؤمن أيضًا أو أتصور أن كثيراً من المجتمعات تخلق لها أحيانًا بعض الأساطير تعيش على صيتها حتى لا تكون مهملة بين الأمم، وفى الوقت نفسه تكون وسيلة للكسب، ووسيلة للتسلية والسمر، وخلق عالم من الحكايات والقصص.

* * *

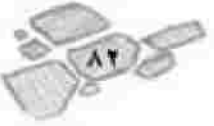

إلى بلاد الصين

سافرنا إلى «كولم» وأقمنا بها ثلاثة أشهر، ثم ركبنا إلى «البنغال» ومكثنا في البحر ثلاثًا وأربعين ليلة، وهي بلاد مليئة بالخيرات. وكان لي فيها ولد مع أمه، طالبت به فلم ترضَ الأم فبقيت معها فترة ثم سافرت إلى «البرهنكار»، وأقواه أهلها كأقواه الكلاب وإن كانوا من البشر، وهم عراة إلا من خرقة تحت البطن وأعلى الفخذين للرجال، وعلى النساء ورق الشجر، وبعد خمسة وعشرين يومًا وصلنا إلى «جاوة» ثم «سومطرة»، وهناك رأيت في مجلس السلطان رجلاً بيده سكين وضعه على رقبته، وتكلم كثيرًا ثم أمسك السكين وقطع عنقه فوقع رأسه على الأرض، وسألني السلطان:

– أيفعل أحد عندكم مثل هذا؟ فقلت له: لا، فقال:

– هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبتنا، وأمر به فرفع وأحرق، وأمر السلطان بتوفير كل ما يلزم لأولاده، وأخبرني من كان حاضرًا أنه كان يقتل نفسه حيًا في السلطان.

ثم سافرنا لمسيرة أربعة وثلاثين يومًا في البحر، حتى بلغنا البحر الراكد، وماؤه أحمر ولا ريح فيه ولا موج، ومياهه خاملة ولذلك يتعب البحريون في عبوره وحث العمال على التجديف بقوة، وبعدها وصلنا إلى بلاد «طوالسي» ويحكمها ملك الصين، وهم عبدة أوثان، صورهم

جميلة أشبه بالترك، والغالب على ألوانهم الحمرة ويتميزون بالشجاعة ونساؤهم يركبن الخيل، ويحسن الرماية، ويقاتلن كالرجال.

وبلغنا بعدها مدينة «كيلوكرى» وتحكمها امرأة، علمت بوجودي فدعتني إلى مجلسها الكبير ومعظمه من النساء ومفروش بالحرير، الأرض والستائر، وخشبه من الصندل وعليه صفائح الذهب، وقد أكرمتني الملكة وأمرت لي بالثواب وحمل فيلين من الأرز وجاموستين تدران اللبن، وعشر غنمات، وثمانية براميل مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والمانجو، ونساء المدينة يقاتلن في الحروب والملكة أيضًا تحارب وتبارز، وفي آخر الحروب قتلت بنفسها ملك الأعداء بطعنة نجلاء، فمات وانهزمت عساكره، وجاءت برأسه على رمح وافتداه أهله بمال كثير، وأخبرني رجال المدينة أنها لم تتزوج، وكلما خطبها أحد قالت: لا أتزوج إلا من يبارزني ويغلبني، فيتجنبون مبارزتها خوف المعرة إن غلبتهم.

مكثنا في البحر سائرين لمدة سبعة عشر يومًا حتى وصلنا بلاد الصين، وهو إقليم متسع جدًا مملوء بالخيرات، وفي وسطها نهر كبير كنهر النيل، وفي الصين سكر كثير يضاهي السكر المصري، وهناك الفخار الصيني، وهو من تراب الجبال توقد فيه النار كالفحم، ثم يصبون عليه الماء ويخمرونه نحو شهر، وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم كالهنود، وملك الصين تُتَرِيٌّ من ذرية

« جنكيزخان »، وفي كل مدينة جانب للمسلمين ينفردون بسكناه.

وأهل الصين لا يبيعون بالذهب والفضة، ولكن بأوراق في حجم الكف مطبوعة بطابع السلطان، وإذا تمزقت تلك الأوراق حملها الشخص إلى دار السك فأخذ عوضًا عنها جديدة.

وأهل الصين أعظم الأمم إحكامًا للصناعات، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فيه، ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة على الخيطان وعلى الأوراق وموضوعة في الأسواق، والمصورون لا يخطئون ولا ينسون ملمحًا، وقصدهم أن الغريب إذا ارتكب إثمًا يمكن مطاردته والقبض عليه أينما كان حسب الصورة.

ولما وصلتُ إلى إحدى المدن الكبيرة في وسط الصين قررت زيارة شيخ كبير زاد عمره على المائتين ولا يأكل ولا يشرب، ويسكن بغار خارج المدينة فتوجهت إليه فرأيته على الباب نحيفًا جدًا شديد الحمرة، عليه آثار العبادة فسلمت عليه وأمسك يدي وشمها ثم قال:

– هذا من طرف الدنيا ونحن في طرفها الآخر.

وفي إحدى الليالي التي مكثتها بهذه المدينة، وكنا في ضيافة الأمير حضر أحد المشعوذين، قال له الأمير: أرنا إحدى عجائبك فأخذ كسرة من الخشب لها ثقب فيها سيور طوال فرمى بها إلى الهواء،

فارتفعت حتى غابت عن الأبصار، ثم أمر مساعده أن يصعد في الهواء، فصوره إلى أن غاب عن أبصارنا فناداه ثلاثًا فلم يرد عليه، فأخذ سكينًا بيده كالمغتاظ وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضًا، ثم رمى بيد الصبي إلينا ثم رمى برجله، ثم بيده الأخرى، ثم برجله ثم بجسده، ثم برأسه وأخيرًا هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم، وتقدم فحيا الأمير ومنحه الأمير مكافأة، ثم انحنى فالصق يد الصبي بجسده ورجله ورأسه، وأمره أن ينهض فنهض بركض، فغشي عليَّ فسقوني دواء أذهب عني ما بي، ومال عليَّ الأمير وقال: إنها شعوذة ولا كان حقيقة شيء مما رأيت.

ومن عادة أهل الصين إذا أرادت سفينة من سفنهم السفر صعد إليها مأمور البحر ومعاونوه، فكتبوا أسماء من يسافر فيها من الرماة والخدام والبحرية، وبعد أن ينتهي يسمح لهم بالسفر، فإذا عاد بعد رحلته صعدوا إليها وطابقوا الأسماء التي سبق وسجلوها لديهم بمن على السفينة من الناس، فإذا غاب أحد طالبوا قبطان السفينة به وسألوه عنه، ولابد من أن يقدم الدليل على أن من غاب أو فقد قد مات فعلاً أو فر، وإلا عوقب ومنعوه من قيادة مركب آخر.

وبعد ذلك تفتش السفينة ويسجل كل ما فيها، فإذا وجد المفتشون سلعة كانت مخبأة أو ممنوعة عنهم صادروها واستولوا على كل ما في السفينة، وذلك نوع من الظلم ما رأيته قط في أي بلد.

وقد لاحظت أن التاجر المسلم إذا قدم إلى بلد من بلاد الصين، خيروه في النزول عند تاجر مسلم معين يعرفه ويقبل أن يستضيفه أو ينزل في الفندق، فإن أحب النزول عند التاجر حصر ماله وضمنه التاجر الذي يستقبله في بيته وأنفق عليه منه بأمانة، فإذا أراد السفر سأل عن ماله، فإذا وجده ناقصًا فعلى التاجر أن يعوضه، وإذا أراد النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق الذي ينفق عليه، ويشترى له ما يريد ثم يحاسبه.

وإذا أراد اللهو اشترى له جارية وأسكنه بدار مستقلة تتبع الفندق وأنفق عليها إلى حين سفره. والجواري رخيصات الأثمان؛ لأن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم، وليس عيبًا عندهم غير أنهن لا يجبرن على السفر مع مشتريهن، فمن أرادت السفر سافرت، ومن رفضت فهي صاحبة قرارها.

وبلاد الصين أكثر البلاد أمنًا وأحسنها حالاً للمسافر، فإن الإنسان يسافر مفردًا تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها؛ لأن لكل بلد أو مدينة فندقًا له حاكم يعاونه جماعة من الفرسان والعاملين، فإذا كان بعد المغرب أو العشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم على الكشف المدونة به الأسماء أو الدفتر، وأقفل باب الفندق عليهم، فإذا

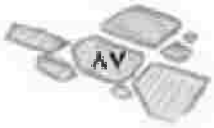

كان الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل إنسان باسمه وتحقق من سلامته، ومن أراد السفر من هؤلاء النزلاء إلى مدينة أخرى أرسل معهم من يوصلهم ويطمئن على سكنهم، ويأتي بإيصال أو ورقة من الحاكم الثاني تفيد أن الجميع قد وصلوا إليه.. وفي كل الفنادق ما تشاء، خاصة الدجاج والأرز، أما الأغنام فهي قليلة.

ولا يكفي ما بين يدي من أوراق لكي أحكي كل ما رأيت في الصين، فهي بلاد العجائب حقًا، ولم أكن أود الرحيل عنها أبدًا، لكنني أخيرًا أدركت أني غبت عن بلادي كثيرًا واشتقت إلى أهلي، وقد آن أن نتأهب للعودة، خاصة أن قتالاً كبيرًا وشرسًا حدث بين المسلمين والكفار في بعض بلاد الصين، أشعرني بالضيق، وظللت أقول: مهما بلغت الخلافات وتعارضت المصالح بين الناس فلا يجب أبدًا أن تصل إلى حد القتل وخراب البيوت ويُتْم الأطفال.

• • •

العودة عن طريق الموت

صادفتنا الريح الطيبة عشرة أيام، ثم تغيرت الريح، وأظلم الجو، وكثر المطر، وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس، ثم دخلنا بحراً لا نعرفه، وخاف بحارة المركب وأرادوا الرجوع إلى الصين، فأخذوا يدورون يميناً ويساراً على غير هدى، وأقمنا اثنين وأربعين يوماً لا نعرف في أي البحار نحن.

وأخيراً ومع طلوع الفجر ظهر لنا جبل في البحر، بيننا وبينه نحو عشرين ميلاً، وإذا الريح تحملنا صوبه، فعجب البحارة وقالوا: لسنا بالقرب من أي بر، وليس هناك جبل في أي بحر، وإن قذفتنا الريح نحوه هلكنا، فلجأ الناس للتضرع وطلب النجاة، وبدءوا في الاعتراف وإعلان التوبة، ونذر التجار الصدقات، وكتبتها لهم في بعض الأوراق، ثم سكنت الريح، وإذا الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء، وظهر في الضوء طائر ضخم، إنه «الرخ»، وهو الذي تصوره البحارة جبلاً.

ووصلنا «جاوة»، والتقينا بالأصدقاء، وزرنا الفقهاء سريعًا لتجديد البركة، وسافرنا إلى «كولم» ثم إلى «قالقوط» وأقمنا بها أيامًا، وأردت الصعود شمالاً إلى «دلهي» في قلب الهند لرؤية زوجة لي وأولادي، ثم تراجعت خشية أن يمسك بي شيء لديهم، وخفت أيضًا مما قد يثير مشاعري، وأنا قد عزمت على التوجه مباشرة إلى «طنجة».

ركبنا البحر لمدة ثمانية وعشرين يومًا، حتى وصلنا «ظفار» على شاطئ الخليج العربي وكان ذلك عام ٧٤٤ هـ، ثم ركبت البحر فوصلت إلى «مسقط» وغيرها حتى وصلنا «هرمز»، وأقمنا بها ثلاثة أيام، ومررنا بكل المدن والقرى الفارسية العامرة بالخيرات ومقابر العلماء والأولياء، حتى وصلنا إلى البصرة فالكوفة وبغداد فالرحبة وتدمر، ثم سافرنا منها إلى دمشق، وكانت مدة مغيبي عنها عشرين سنة كاملة، وكنت تركت بها زوجة حاملاً، وعلمت وأنا بالهند أنها أنجبت ولدًا ذكرًا، واجتهدت للسؤال عنه، حتى وجدت من يعرفني الأخبار عن يقين، لكنه أخبرني بأن الولد مات منذ اثني عشر عامًا، وعلمت أن بدمشق بعض المغاربة، وأن من بينهم فقيهًا من «طنجة» يسكن بالمدرسة الظاهرية، فأسرعت إليه لأسأله عن والدي وأهلي، فوجدته شيخًا كبيرًا، وسلمت عليه وعرفته بنفسي، فأخبرني أن والدي تُوفي منذ خمس عشرة سنة، وأن أمي على قيد الحياة.

أقمت بالشام شهرين، وكان الغلاء شديدًا إلى درجة أن الناس كانوا يختطفون الخبز الذي يوزعه عليهم كبراء «دمشق»، وسافرت من «دمشق» إلى «حمص» ثم «حماة» فالمعرة ثم إلى «حلب» وأقمنا بحلب شهرًا بعد سماعنا أن الوباء يحصد الأرواح في «غزة» ويبلغ الموتى منهم كل يوم ما يزيد على الألف، فرجعت إلى «حمص» فوجدت الوباء سبقني إليها، وعدت إلى «دمشق» ففوجئت أن الوباء

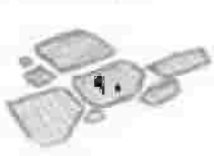

اجتاحها، ويموت في اليوم الواحد فوق الألفين وخمسمائة، فسافرت إلى «عجلون» وبيت المقدس وكان الوباء بهما قد تراجع، وزرت «الخليل»، ثم سرنا إلى «غزة» فوجدناها خالية من كثرة الراحلين ومضينا في صحراء «سيناء» حتى «دمياط» ومنها إلى «فارسكور» و«سمنود» وإلى «أبي صير» ومنها إلى «المحلة الكبرى» ثم «دمنهور» و«الإسكندرية»، وكنت قد سمعت أن بها وباء، وعند وصولي كان قد خف وقد بلغ عدد الموتى نحو الألف كل يوم، ومع ذلك فضلت السفر إلى القاهرة، فإذا بالوباء يجتاحها، وعدد الموتى فيها يوميًا يبلغ العشرين ألفًا، وسألت عن كل الشيوخ الذين أعرفهم فوجدتهم جميعًا قد ماتوا.

ثم سافرت من القاهرة بحذاء النيل جنوبًا إلى بلاد الصعيد حتى «عيذاب»، ومنها ركبت البحر إلى «جدة» و«مكة»، وكان ذلك عام ٧٤٩ هـ، فلزمتها في عبادة ولقاء الفقهاء ومعرفة أحوال العباد حتى آوان الحج، فحججت ودعوت وحمدت الله.

ثم سافرنا إلى «المدينة» لزيارة قبر الرسول الكريم ﷺ، وزرت في «البقيع» قبور أحباب رسول الله ﷺ وأصحابه، ومن «المدينة» صعدنا إلى «العلا» و«تبوك» ثم «بيت المقدس» و«الخليل» و«غزة» ثم إلى «القاهرة»، وزاد الحنين إلى بلادي، خاصة بعد لقائي ببعض من أعرف

من المغاربة، وقلت في هذا تقديراً للوطن الذى اشتقت إليه وأراه خير البلدان :

بلاد بها نيطت عليّ تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها

وسألت عن مراكب البحر بدلاً من طريق البر، فعلمت أن مركبًا لبعض التونسيين سيتحرك من «الإسكندرية» إلى «تونس»، فأسرعت للحاق به، وكان ذلك عام ٧٥٠ هـ، وسرنا حتى نزلنا بجربة ورأيت أن أبقى بضعة أيام بها، وسافر المركب إلى «تونس»، لكن العدو استولى عليه.

وسافرت في مركب صغير إلى «قابس»، فأصر أهلها على البقاء معهم أيامًا، وأطل علينا مولد المصطفى ﷺ، ثم ركبنا إلى «صفاقس» ثم إلى «بلبانة»، ومنها بالبر مع العرب إلى مدينة «تونس» بعد أن عانينا المشقة الكثيرة من قطاع الطرق والقحط الشديد والظمأ.

وبعد أيام سافرت بالبحر إلى جزيرة «سردينيا» وهي من جزر الروم، وما إن نزلنا بها حتى بلغنا أن أهلها عازمون على أسرنا عند التأهب للخروج منها، فنذرت أن أصوم شهرين إذا خلصنا الله منهم، وأمكننا بفضل الله أن نتسلل بمركب صغير إلى «الجزائر» فوصلنا «تنس» و«مازونة» و«مستغانم» ثم «تلمسان»، فبقينا أيامًا لزيارة العبّاد الصالحين، ثم سرنا في اتجاه المغرب، وتعاقب علينا العربان من

قطاع الطرق، فقاتلنا مرة وسالمنا مرات حتى بلغنا مدينة «تازى»، وبها عرفت بخبر وفاة والدتي في الوباء رحمها الله، وسافرت منها إلى «فاس»، حيث دعاني السلطان «أبو عنان» للقائه مرات، وفي كل مرة يسألني عما شاهدت في ربع القرن الذي مضى، وفي الأرض التي طوبتها وسعيت بين أطرافها، فأجبته عما سأل، وعزمت على أن أمكث دون سفر بعد ذلك، فقد تحسنت الأحوال بالبلاد وكثرت الخيرات وحدث العمران وانتشر، وعم العدل، وما أروع أن يعود المغترب ويحط المسافر في بلده ليلقى الراحة الحقيقية التي لم يلقها في أي مكان، مهما كان مكرمًا وتحت يده كل ما يتمني للوطن لذة أخرى وطعم لا مثيل له، وفي كل شيء فيه حلاوة وسر غامض لا يدركه الكثيرون، يمكن أن يكون رابطة مع الهواء، أو مع الماء أو المكان والناس، أو مع التاريخ والطرق والذكريات والتراب وأشياء لا نعلمها.

* * *

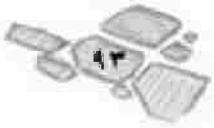

الأندلس

أقمت بفاس في حضرة السلطان عدة أيام، ثم اشتقت إلى والدتي فقصدت قبرها في بلدة «طنجة» العزيزة، ثم انتقلت إلى مدينة «سبتة» فأقمت بها أشهرًا، وكان المرض قد أصابني فيها وأرقدني طويلاً، ولما شفيت أردت أن أمضي إلى إخواني المسلمين في الأندلس فأتعرف أحوالهم وأعمل من أجلهم ما أقدر عليه في عونهم ضد الطغاة الذين يتربصون بهم منذ سنين.

وكنت قد سمعت بعد وصولي «فاس» أن «ألفونس» ظل يحاصر جبل الفتح وأهله عشرة أشهر، وظن أنه إذا احتل الجبل استطاع أن يستولي على «غرناطة» جميعها، إلا أنه مات من الوباء الذي كان يخشاه، وكان المسلمون في هذه المنطقة قد عانوا كثيرًا ولكنهم قاوموا بصبر وإباء حتى انتهى الحصار، وبعد أن زرت جبل الفتح وأهله وأبلغتهم مؤازرة سلطان المغرب ودعمه، انتقلت إلى مدينة «رُندة» حيث تشتد مقاومة المسلمين لمحاولات الغزو، وأقمت بها أيامًا أشارك في وضع خطط المقاومة ثم سافرت إلى «مرابيلا»، ولقيت هناك جماعة من المقاتلين في طريقهم إلى «مالقة» فعزمت على صحبتهم، فطلبوا مني التمهل والسفر مع الدفعة التالية، وقد أسفت حين علمت أنهم وقعوا في الأسر.

ووصلنا بعد مشقة إلى «مالقة»، وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والبساتين، وبها يصنع الفخار المُذهَّب البديع، وبها مسجد كبير حسن البناء والتجهيز.

ثم وصلت إلى مدينة «غرناطة» عروس المدن الأندلسية، يخترقها نهر «شنيل»، والمدينة كثيرة الخيرات، وتتزين بالفقهاء والكتاب، وزرت فيها عين الدمع، وهو جبل ممتلئ بالبساتين، وزرت جبل «العقاب» ودرت في كثير من البلاد والتقيت بأكابر المسلمين وتحدثنا طويلاً فيما يقوم به الروم ضدهم، وطمأنوني على أحوالهم وتمسكهم ببلادهم التي عمروها وجعلوها من خير البلاد، وأخيراً بلغت «جبل الفتح» وركبت البحر في مركب صغير فوصلت «سبتة»، ثم سافرت إلى «أصيلا»، وهي قرية جميلة مطلة على المحيط، فأقمت بها شهوراً؛ لحبتي الشديدة لأهلها وهوائها، ثم سافرت إلى «سلا»، ومنها إلى «مراكش» وهي من أكبر مدن المغرب، وهي عامرة بالخيرات، كثيرة المساجد وأكبرها مسجد الكتبيين، وبها صومعة هائلة وعجيبة صعدتها فرأيت كل المدينة، وصعدت راجعًا إلى الشمال حيث «سلا» ومنها إلى «مكناسة» شرقًا حيث حقول الزيتون الشاسعة، ثم وصلنا «فاس»، حاضرة البلاد ومقر السلطان فأقمت شهرًا، لكن الرغبة التي لم تخمد بعد تحركت بصدري من جديد وقلت لنفسي:

– لقد زرت كافة الأقطار والأمصار إلا إفريقيا.. صحيح إني زرت

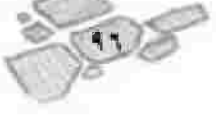

مصر وشمال إفريقيا، لكننى أريد الجنوب، فلابد أن هذه البلاد فيها ما يختلف عما رأيت، ولابد أن أرى كل ما خلق الله على الأرض من طبيعة ونبات وبشر وجماد وأنهار وجبال.. حاولت أن أقنع نفسى باختلاق الأسباب، لكنها جميعًا لم تصمد أمام رغبتى التى تربت على الترحال لمدة تقترب من ثمانية وعشرين عامًا.. فنحن الآن فى أول عام ٧٥٣ هـ.

* * *

السودان

اتجهت من «فاس» جنوبًا إلى «سجلماسة» بعد عشرة أيام من السير، وهى مدينة التمر الأولى فى المغرب، وهى تشبه «البصرة» فى ذلك. اشتريت منها جملاً صغيرة وبقيت إلى جوارها أعلفها أربعة أشهر، ثم انطلقت فى رفقة كريمة فيها تجار «سجلماسة» وغيرهم.

فوصلنا بعد خمسة وعشرين يومًا إلى «تغازى» وهى قرية لا خير فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها، إنما أرضها من رمل وملح، يحفر أهلها الأرض ويستخرجون منها ألواحًا ضخمة من الملح متراكبة، كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض، لايستطيع الجمل أن يحمل منها سوى لوحين، وكل من يسكنون بها هم عمال الملح، وكل ما يحتاجون إليه يجلبونه من غيرها.

وكل البلاد السودانية والإفريقية تأتى إلى «تغازى» لشراء الملح، ويقطعونه قطعًا، وقرية «تغازى» على حقارتها تحصل على الذهب والفضة مقابل الملح.

أقمنا بها عشرة أيام من أصعب الأيام؛ لأن ماءها ردىء جدًا والذباب كثير، وكان من المتعذر مغادرتها فورًا؛ لأن بعض الرفاق من التجار كانوا يعقدون صفقاتهم، واحترام الأصحاب فى السفر أمر

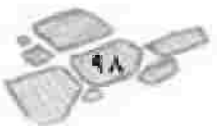

حتمي ومهم ولا مفر من الإذعان للرغبات المتعارضة التي تخص حياة الناس ومصالحهم.

ثم سرنا في صحراء قاحلة، لكن سرعان ما كنا نجد الماء العذب بين تلين من حجارة، فنرتوي ونغتسل ونغسل ثيابنا، لكن القمل في هذه الصحراء كثير لم يسمح لنا بالراحة أو السير، لولا أن البعض كان يمرر خيوطًا من الزئبق على الرقاب والظهور فتقتلها. وكم سقط منا في هذه الصحراء بعض من لم يتحمل الظمأ، وأكد لنا بعض الرفاق أن هذه الصحراء كثيرة الشياطين التي تعبث بعقول المسافرين يمينًا ويسارًا، وتشجعه على التقدم أو تحثه على الرجوع، حتى يضل المسافر ويهلك، وخاصة أن الصحراء تحركها الريح، فترى جبالاً من الرمل وبعد ساعة تجدها اختفت وانتقلت إلى موضع آخر، وكم رأينا من عجائب هذه الصحراء المجنونة ما لم نره من قبل. ومن غرائب هذه الرحلة أن الدليل الذي كان يتقدمنا أعور العين اليمنى، مريض العين اليسرى، ولكنه أعرف الناس بالطريق، وقد رأيت الكثير من الحمر الوحشية ترعى في شكل قطعان كبيرة، يتقدم منها الناس فيصطادونها بالكلاب والنشاب وقد أكلت لحمها مرات، فلاحظت أنه يولد العطش، لذلك لا يلجأ إليه الناس إلا مضطرين، والغريب أن بعض الناس يذبحون الحمار الوحشي لا ليأكلونه بل ليشربوا الماء المتجمع في كرشه.

وفي هذه الصحراء رأيت كثيراً من الحيات، وبعضها ضخم وألوانها متعددة، وكان معنا تاجر من تلمسان اسمه الحاج زيان مغرم بالحيات، يقبض عليها ويلعب بها، وكنت أنهاه عن ذلك فلا ينتهي، وفي يوم أدخل يده في جحر ضب وهو حيوان زاحف خشن الجلد يشبه تمساحًا صغيرًا، ويسمونه أحيانًا تمساح الصحراء، فوجد في مكانه حية أخذها بيده وحاول أن يلاعبها فلدغته في أصبعه، وأصابه ألم شديد، فاقترح عليه رفيقٌ كيَّ اليد، فزاد ألمه، واقترح آخر أن ينحر الجمل ويدخل يده في كرشه ويبقيها ليلة، وفي الصباح وجد أصبعه مهروسًا، فقطعه من الكف وكوى موضعه، وأخبرنا أهلُ الصحراء أن تلك الحية لابد أنها شربت ماء قبل لدغه، ولولا ذلك لقتلته.

وأكملنا سيرنا في صحراء شديدة الحر، لم نستطع أن نسير في نهارها ساعة، وكان سيرنا ليلاً، وما إن يشرق الصبح حتى نتخذ مكانًا ملائمًا للراحة والنوم، ويأتينا من القرى القريبة من يبيعون لنا الماء، إلى أن وصلنا إلى «إيوالاتن» بعد شهرين من تركنا سجلماسة، وكنا قد ضعفنا تمامًا ولم نعد نصلح لشيء من كثرة التعب والجوع.

«وإيوالاتن» أول بلاد السودان (إفريقيا) وبدت معاملة أهلها غير كريمة، وهي شديدة الحرارة، لكن بها لحم ضأن طيب وبطيخ حسن، ومعظم أهلها يرتدون ثيابًا جيدة من مصر، والمرأة فيهم ذات أهمية وشخصية ولها كلمة مسموعة بين الرجال، بينما الرجال لا غيرة

لديهم، ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه وإنما إلى خاله، وكنت أنوى الاتجاه إلى مكة للحج مع قافلة مسافرة، لكنى رأيت أن أمكث قليلاً؛ لأنى كنت بحاجة إلى أن أستعيد صحتى التى تراجعت كثيراً، وكذلك لأتأمل الناس ولأتعرف أحوالهم الغريبة ولو أنها غير مرضية، ولم أسمع بمثلها فى مكان آخر، ومن ذلك أن الرجل لا يرثه أبناؤه، بل أبناء أخته، والنساء لا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن، مع أنهن حريصات على الصلاة. وهن كنساء بلاد الهند وجزرها يتزوجن من الرجال ولكن لا يسافرن خارج البلاد ، وللنساء أصحاب من الرجال غير أزواجهن ولا يتزعج الرجال.

ثم سافرت إلى مالى، قاطعاً مسافة تتجاوز الثلاثمائة ميل تطلبت أربعة وعشرين يوماً، مررت خلالها بقرى كثيرة، وهى فى الأغلب آمنة ولكنها فقيرة جداً والطريق عامر بالأشجار، بعضها يستخرج من تحته الماء، وبعضها يثمر مثل فواكه التفاح والخوخ والمشمش وما يشبه الفقوس، وعندما ينضج تنشق الثمرة ويتلقى الناس ما يسقط منها، وهو مثل الدقيق، يطبخونه ويأكلونه، والقرع كثير يستخدم كأوانٍ للطعام، ويستخدم كصناديق أو حقائب يحملون فيه الأمتعة، والكبير منها يعبرون فيه الأنهار.. ولا يوجد فى هذه البلاد صناعة أو بناء، ولكنهم يعيشون على بعض ثمار الطبيعة.

وآخر حدود «مالى» التى وصلنا إليها شرقًا تبلغ النيل، وهناك نلتقى بأهل النوبة جنوبى مصر وهم على دين المسيح، ووصلنا «دنقلة» وهى منطقة كبيرة عامرة وأغلبها مسلمون، وبها تماسيح كثيرة فى النيل تخرج إلى ضفافه، ومدينة «مالى» أكبر المدن، لقيت بها الكثير من الفقهاء، ورحب بنا السلطان وأهله وأكرمونا بالضيافة، وقد أطعمنا مرة عصيدة تصنع من شىء يشبه الفلفاس، فأصبحنا جميعًا مرضى، وكنا ستة مات أحدنا، وذهبت إلى صلاة الصبح فأغمى علىّ، وعالجنى أحد المصريين حتى شفيت بعد أن أفرغت كل ما أكلت، وبعد عدة أيام أصابتنى حمى أرقدتنى شهرين.

وكان السلطان صاحب عدل لا يسامح أحدًا فى سرقة، ويحمى المظلوم وينتقم من الظالم، والناس فى مالى يحرصون على الصلاة كما يحرص عليها السلطان، ويبكرون بالذهاب إلى المساجد، ويحرصون على أن يحفظ أولادهم القرآن، والمساجد يوم الجمعة تعانى من الزحام، وكل غلام يذهب مع والده حاملاً سجادته، وهى من سعف شجر يشبه النخيل، وعليهم جميعًا الثياب البيضاء الناصعة والنظيفة.

ومن مساوئ أفعالهم أن الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات، وقد كنت فى شهر رمضان بالدات أرى كثيرًا منهن على هذه الصورة، فمن عادة الأمراء أن يفطروا بدار

السلطان، ويأتي كل واحد منهم بطعامه تحمله أكثر من عشرين فتاة من جواريه وهن عرايا تماماً، ومنها أيضاً دخول النساء على النساء عرايا، وإذا دخلن كاسيات ولو قطعة واحدة فهذا معناه أن شيئاً غير عادي قد حدث، وأنهن غاضبات أو لهن شكاوى.

ومن المساوئ أيضاً وضعهم التراب والرماد على رءوسهم تأدباً في حضرة السلطان أو الكبار، وأسوأ من ذلك أن بعضهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير، وقد بقيت بمالي ما يقرب من العام.

* * *

تنبو كتو.. والعودة

رافقني تاجر يعرف بأبي بكر بن يعقوب، وقصدنا طريق «ميمة» ووصلنا إلى خليج كبير يخرج من النيل، فرأيت على ضفته ست عشرة دابة ضخمة الخلقة، فعجبت منها وظننتها قيلة لكثرتها هناك ثم رأيتها دخلت النهر، فسألت التاجر، فقال: هي خيول البحر خرجت ترعى في البر، وهي أكبر من الخيل عرضًا، ورءوسها كرءوس الخيل وارجلها كأرجل الفيل، ولكنها أقصر، وهي تعوم في الماء وترفع رءوسها وتنفخ، وكنا نركب النهر مرة ورآها أهل المركب فطلبوا الابتعاد عنها حتى لا تغرقهم، وبعض الناس يصطادونها برماح مثقوبة تخرج من ثقوبها شرائط مربوطة جيدًا، يصوبون الرماح إلى فرس النهر هذا والحبال بايديهم، فإذا نفذ الرمح في رجل الفرس أو عنقه جرّوه بها حتى يصل إلى الشاطئ فيذبحونه ويأكلون لحمه.

وكنت قد عزمت على زيارة بعض البلاد الجنوبية، فأخبرني «أبو بكر» أن سكانها ممن يأكلون لحوم البشر، وحذرني من دخولها، وكنت قد علمت من غيره أن بعض القبائل لا تميل إلى أكل صاحب اللون الأبيض؛ لأنهم يحسبونه غير ناضج جيدًا، والطعام اللذيذ في زعمهم الأسود، لذلك يفضلون الآدميين السود، وفضلت ألا أغامر، وفي بلاد آكلي لحوم البشر الذهبُ الكثير، ولذلك يحاول بعض الناس

الوصول إليه فياكلهم اصحاب الذهب، وسبحان الله فله في خلقه شئون وشئون.

وكنت أركب جملاً من «مالي»، أحببته وتحملني كثيراً وقبل أن نصل «ميمة» مرض ومات وما أن ذهبت إلي المسجد لصلاة العصر عازمًا على العودة إليه والبحث عن طريقة لدفنه حتى وجدت أهل المنطقة يلتفون حوله ويأكلونه، وفي هذه الليلة رأيت فيما يرى النائم كان إنسانًا يقول لي «يا محمد يا ابن بطوطة اقرأ سورة يس في كل يوم فلن تنقطع فوائدها، ومن يومئذ لم أترك قراءتها كل يوم إذا قعدت أو سافرت».

سافرنا إلى «تنبوكتو»، وأكثر سكانها يرتدون اللثام وأقمت بها عدة أيام، وهي مدينة عامرة بالخيرات والتجارة، ولأنها قريبة من أحد فروع النيل، رأيت أن أجعل سفري هذه المرة فيه.

وكبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة، وكنا ننزل كل ليلة بالقرى التي نمر بها فنشتري ما نحتاج إليه من طعام وسمن مقابل الملح والعطور والحلي الزجاجية.

ووصلنا إلى «برادامة»، وهي قبيلة من البربر، وهم رحالة لا يقيمون على الدوام في مكان، ولذلك فبيوتهم من ألواح الخشب مسقوفة بالخصر وفوقها الجلود ونساؤهم جميلات وسمينات مولعات

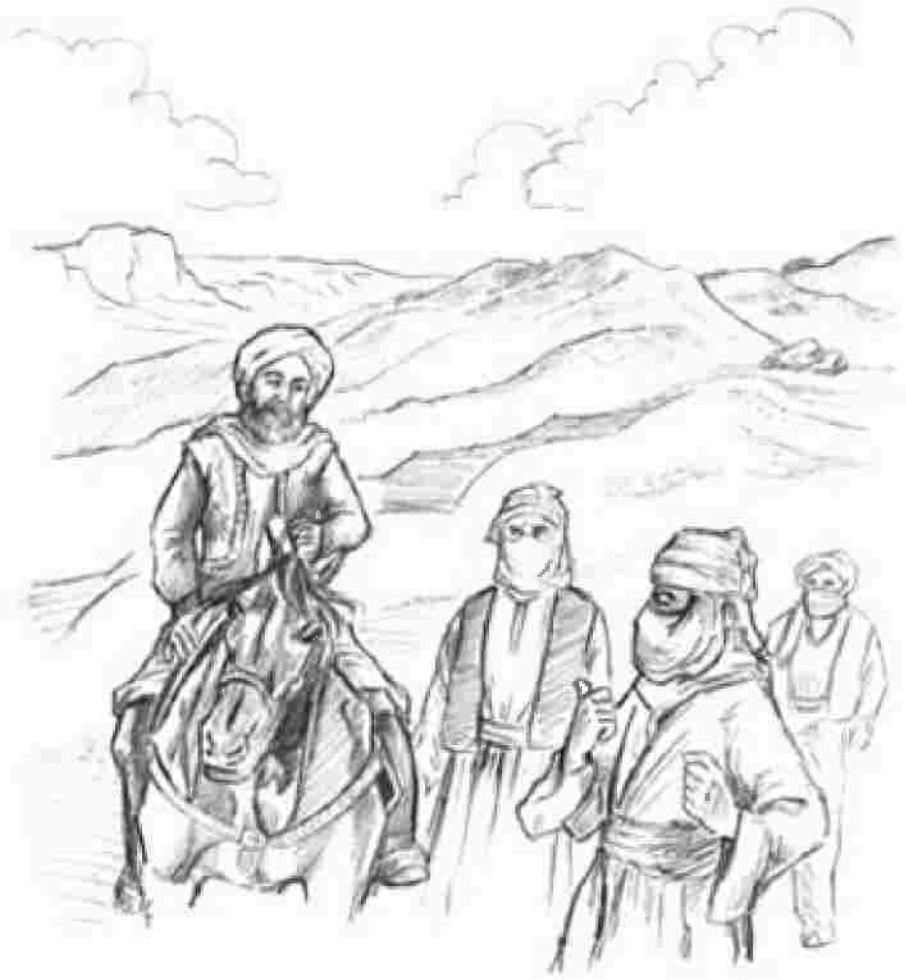

بحليب البقر، واصابني المرض بهذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء وبسبب كثرة العقارب، ومنهم تجار يسافرون إلى مصر لشراء الملابس والعطور والحلى وسواها.

ووصلنا إلى «تكدا» وهي بلدة تمتلئ بالنحاس، يحفرون عليه الأرض ويستخرجونه ويصهرونه، ويصنعون منه قضباناً ورقائق ويعيشون على بيعه، فبثمنه يحصلون على كل ما يريدون.

ووصلنا «برنو» وهي على مسيرة أربعين يوماً من «تكدا» وأهلها مسلمون، لكن ملكهم لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب، فعجبت لذلك، وأذكر أن نزاعاً نشأ بينه وبين إحدى القبائل وعلمت به فطلبت القيام بالتوسط بينهما وذهبت إلى القبيلة المتخاصمة، فرحبوا بي لعلمهم أني فقيه وأني غريب، وأكرموا ضيافتي، وكان زعيمهم يبعث إليَّ كل يوم كبشين مشويين على السفود (السيخ) في الصباح والمساء، وتبعث أمه بالحليب بعد العشاء، وأتممت المصالحة وبقيت لديهم ستة أيام، لكني فشلت في ركوب الفرس مثلهم دون سرج، ثم عدت إلى «برنو» ومنها إلى «تكدا».

وبعد عودتي إلى «تكدا»، وجدت رسولاً من سلطان المغرب يطلب إليَّ العودة، فشكرت الله على فضله، وشعرت كأنني نسيت

نفسي وعدت لحب الارتحال، ولو لم يرسل إليّ السلطان الكريم صاحب الفضل العميم لمضيت أطوف بالبلاد، وأخوض في الأنهار، وأصعد الجبال وأتنقل بين السهول والوديان وأقابل خلق الله، ولذلك قبلت العودة وتأهبت لها، فاشتريت جملين وجهزت المؤونة التي تكفي سبعين ليلة، وخرجت من «تكدا» في الحادي عشر من شعبان سنة سبعمائة واربعة وخمسين في رفقة كبيرة منها ستمائة خادم ولما وصلنا إلى «توات» اشترينا منها الأغنام التي يجففون لحمها فحملنا معنا منه الكثير، وفي الطريق مررنا بإحدى القبائل الملثمة، فحبسوا القافلة حتى يحصلوا على الثياب فقدمناها لهم وكان ذلك قبل يوم واحد من شهر رمضان الذي يكفون فيه عن كل شيء ردىء ولا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل، وإذا وجد اللصوص منهم أي شيء في رمضان حتى الذهب لا يأخذونه.

ومررنا بقبيلة من البربر في مدينة «بودا»، وأرضها رمال وسباخ ولا زرع بها ولا لحم وأكل أهلها مقتصر على التمر والجراد، ومن كثرة الجراد يخزنونه في المخازن لوقت الحاجة، وهم في العادة يصطادونه قبل طلوع الشمس، فإنه لا يطير في هذا الوقت بسبب البرد.

اتجهنا شمالاً نحو المغرب وداهمنا برد شديد مع قدوم عيد الأضحى وسرعان ما هبط الثلج، ودهشت لكثرته وقد لقيت الثلج في

«بخارى» و«سمرقند» و«خراسان» وبلاد «الأتراك»، لكن الثلج الذى فاجأنا من تونات إلى «سجلماسة» لم أر شبيهًا له، ثم واصلنا المسير شوقًا إلى البلاد التي أرادها الله لي مولدًا ومستقرًا، فالشكر له كل الشكر على ما اختار لى وقدر، وقد قضت حكمته أن نبلغ «فاس» بأمان وسلام، وينتهى بذلك عهد طويل من الارتحال قارب الثلاثين عامًا.. فأقمت لا أغادر، ملتزمًا العبادة والقراءة، وقد طلب السلطان الأمين أن أملى أطراف هذه الرحلة على «ابن جزى»، فبدأناها بعد شهور من وصولى، وانتهينا منها فى ثالث ذى الحجة من عام سبعمائة وستة وخمسين، ولا يزال في خاطرى صور البشر الذين لقيتهم تتوالى، وتمر فى شريط لا يتوقف؛ لأنى مهما رأيت من عجائب الحيوان والطير والبحار والأنهار والطبيعة والحجر.. فليس أعجب مما رأيت لدى البشر من غرائب الأحوال والطبائع والصور.

* * *

الفهرس

الموضـــــوع	الصـفـحـة
هذا الكتاب	٣
البداية	٦
القاهرة	١٤
إلى البحر الأحمر والشام	١٨
حلب ودمشق	٢٥
إلى الحجاز	٣٠
من مكة إلى العراق	٣٥
من بلاد فارس إلى بغداد ومكة	٣٨
اليمن والصومال	٤٠
إلى بلاد الترك	٤٨
إلى بلاد الظلمة وخوارزم	٥٦

الفهرس

الموضـــــوع	الصـفحـة
فى بلاد الهند	٦١
وقوعى فى الأسر	٦٦
فى بلاد المليبار	٧٤
جزيرة سيلان	٧٩
إلى بلاد الصين	٨٣
العودة إلى طريق الموت	٨٩
الأندلس	٩٤
السودان	٩٨
تنبوكتو .. والعودة	١٠٥
الفهرس	١١١